سلوكيات مرتقبة

لرجل مائل

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني : وفاء الساطي
تصميم الغلاف : فرح فتال

نصر محسن

سلوكيات مرتقبة

لرجل مائل

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة القصص (7)
2012

حكايات للوطن، والزنازن

ليلة المطر . . . والريح

ستدخل المصيدة برجليك، لن ينقذك حذرك، ولن تستطيع أن تبقى واقفاً هكذا، منذهلاً، تتناهبك الحيرة بين الدخول والخروج. تتقزّم كثيراً، ويغدو مصيرك لا شيء أمام ما تحمل من مصائر ناس تحبهم، ووطن تراه مركز الكون. هكذا علّموك، بعيداً عن أعين العسس، وهراوات رجال الدرك. هذا الطريق الواسع الممتدّ أمامك، والمغسول بمطر لا ينقطع، أقصر الطرق وأسلمها للعبور. على مدّ نظرك ثمة مكان آمن، (خرابة) كانت فيما مضى بيتاً. هناك ينتظرك الأصدقاء.

الريح صديق أسطوري، أصبح هديرها غناء، تعوّدت عليه لكثرة ما صاحبته، تلفّك الريح فتخفيك، تخفي صدى خطواتك، وشخب لهاثك. والمطر الذي يزخّ فوقك يحمل لك بعض الطمأنينة. تظنّ أن لا أحد يخرج في هذا الجو العاصف. على يمين الطريق صفصافة حنّت عليك،

أدخلتك حضنها لتقيك البلل والبرد، فتحت لك ذراعيها وأنت تدخل مواراً، حذر أن تراك عين، ابتعدت عن أضواء الشارع الكاشفة، دنوت بحذر من الجذع الثخين، أقعيت منصتاً، ومنتظراً هدوء المطر الغاضب.

الليل ستّار. وكم تحتاج إلى الستر يا ذا التاريخ الرّاعف هروباً وملاحقات. الريح تشتدّ، تقتلع الأشياء الصغيرة، وتدحرجها، وأنت عصيّ على الاقتلاع، تسند ظهرك إلى جذع الصفصافة، تمسح بكفّك شعرك المبلل ووجهك المغسول. بضع عشرات من الأمتار تفصلك عن باب موصد بعناية، الباب لن يُفتح إلاّ لك، ستفكّ الرصد بيسراك، لن تحتاج إلى كلمة سرّ، فقط تُدخل يدك اليسرى في كوّة قريبة من الباب، تشدّ الحبل المربوط في عتلة حديدية، فينفتح الباب وينتهي الأمر. أصبحتم تتحاشون الكلام، حتى كلمة السر تمّ الاستغناء عنها، تعملون بلا صوت، تتواصلون بالإشارة، وبإحساس داخلي غالباً ما يصدق.

ينقطع النفس عند سماع خطوات تهرول، تقترب وتتسارع، ثم تبتعد وتغيب.

ترسل نظرك في الشارع المستقيم، لا ترى أثراً لأحد، يتحفّز كل شيء فيك، ترتجف، ينكمش جلدك، نوبة

برد مفاجئة، بل هي نوبة خوف تغزوك. النبض يتسارع، والذهن ينشحن بألف خطة وخطة للهروب، هناك أكثر من مفترق، تستطيع الهروب متى شئت، غير أن أصحاب الخطوات أسرع منك، ستكون بين أيديهم فأراً صغيراً، لا حول له ولا قوّة.

تنتظر وقوف الهطل، وتطمئن إلى ابتعاد الخطوات المهرولة. الهطل لا يتوقف، والخطوات تعود ثانية، تختلط بأصوات احتكاك قطع حديدية. رجال الدرك يجوبون المدينة منذ المساء، لم يخبرك أحد بذلك، وإحساسك لم يلتقط أمراً مفاجئاً كهذا. اتّفقتم صباحاً، ثم مضيتم كلّ إلى شؤونه، على أن تلتقوا ليلاً في تلك (الخرابة). الآن تفكّر، تخمّن أن أمراً ما سيحصل من دون أن يُحسب حسابه. لا، أبداً، لن يحصل شيء، أنت تتوهّم، أجل، تتوهّم. مثانتك تكاد تنفجر، تنهض قليلاً، يستقيم جذعك، ويبقى رأسك محنيّاً تحت الأغصان المنخفضة، تفكّ أزرار بنطالك، تستدير إلى الجذع، وتبول، يتّحد خيط البول المندفع مع خيوط المطر المتهاطل من الأغصان فوقك. ترتاح المثانة قليلاً، تزعق عجلات في الزاوية القريبة، ينقطع خيط البول، وتلتحم بالجذع أكثر. تزرّر بنطالك، وتتجهّز للهروب. تتلمّس الأوراق التي التحمت بأنسجة جلدك الدافئة، تخشى عليها من المطر، ومنهم،

تطمئن إلى سلامتها، تعاود النظر في الجهات كلها، لا أحد. الهطل يعود، يدفدف رويداً رويداً، وتتكاثر الميازيب الصغيرة فوق رأسك.

ستعبر إلى الجهة الأخرى، السور الممتدّ يحميك من عيونهم، ويحمي ظهرك من رصاصهم لو رأوك. ستهرع بأقصى سرعة، عشرات من الأمتار فقط، وتكون أمام الباب، تدخل إليهم، وينتهي كل شيء.

عيناك جمرتان متّقدتان دون ضوء، وقلبك كان كالصخر قبل أن تسمع القعقعة والخطوات المهرولة، ثم تحوّل بعد زعيق العجلات إلى قلب طفل مرعوب. ترفع القبّعة عن رأسك، ترصد ليل المدينة الفاضح، تتحيّر، كيف ستعبر الشارع العريض، مرّة تتظاهر باللامبالاة، ومرّة تعدو بسرعة الريح حتى تصل السور، وهناك تراقب، المهم ألاّ تُظهر ارتباكك. الثقة، أو التظاهر بالثقة أمر ضروري في موقف كهذا. المطر يساعدك في إخفاء ارتباكك. كل الناس يركضون تحت المطر، فماذا يضير لو ركضت؟ المهم أن تحافظ على هدوء أعصابك. إن واجهك أحد، تتجاهله، تتجاوز الباب دون أن تثير أي انتباه، ثم تلتفّ من شارع آخر، وتعود. الخطّة محكمة، فلمَ الخوف؟

العسس في كل مكان، قد تصادفهم، عليك أن تضع كل الاحتمالات أمامك، وأن تتعامل بذكاء مع أي موقف طارئ. حتى لو أوقفوك، وسألوك، لن تعدم جواباً، أنت لا تنقصك الفطنة.

شيء ما، يسقط أمامك فجأة، تجفل وترتعب، يتوقّف نبضك قليلاً، ثم يعود طبيعياً، تسخر من نفسك، الصفصافة الحنون تداعبك بغلاظة، تختبر صلابتك وبأسك. غصن يابس يسقط فيرعبك، لا ..أبداً، أنت أقوى من ذلك بكثير، لكن الموقف يجعلك على ما أنت عليه.

السيارات تعبر بهدوء، مسالمة، وأنت تترصّد قطعة من الزمن، ساكنة، لتهرع إلى مهمتك. يهدأ المطر قليلاً، تطمئن ثانية إلى الأوراق في عبّك، تجهّز نفسك، وتمضي. تمشي خطوات قليلة حذرة، ثم تعيد نظرك إلى الوراء، حيث الجذع، والعود اليابس، تبتسم بحزن، وتنطلق. تنتعل الرصيف وتتهيّأ للعبور إلى حيث يمتد السور ليحميك، ما زال المطر يتساقط، الريح هدأت قليلاً، تركت لك فرصة لتذهب، الريح صديقة وفيّة. هزيم الرعد لم يتوقف، ولا وميض البرق يخفّ، السماء متجهّمة، لا تبالي بها. تجتاز الشارع محاذراً السيارات العابرة، تسوّي قبعتك، وتمشي لصق السور.

خطواتك تتسارع، وأفكارك جيّاشة بالخوف، نظرك يترصّد مع اقترابك من الباب، تجهّز يسراك لتمدّها في الكوّة، وتمسك الحبل، يفاجئك ضوء سيارة مسرعة، يجابهك وجهاً لوجه، تبدو ملامحك مصفرّة وكالحة، كأنك خارج من قبر، أو داخل إليه، تعيد يدك إلى جيبك، ويبدأ ذهنك يشتغل؛ ألف احتمال يعبر بلحظة واحدة، لكل احتمال تصرّف مختلف، لحظة تعادل عمراً مديداً، بعذاباته، بخوفه وشقائه. تجتاز الباب بهدوء، وبلا اكتراث، السيارة تعبر وتمضي، تلاحقها بنظرك حتى تغيب في نهاية الشارع. تتوقّف قليلاً، تستطلع المكان، تدندن أغنية مرتجفة، تختلط كلماتها مع الضجيج المتعالي لطبيعة لا تهدأ. تطمئن، تعود بضعة أمتار، تصل إلى الباب، تمدّ يدك إلى الكوّة، تبحث عن طرف الحبل، تتلمّس حوافّ الكوّة الخشنة، تفتّش جيّداً، تستغرب، لا أثر لأي شيء، تقترب من الباب، تدفره بهدوء، فينفتح.

نظرك يلفّ المكان مستكشفاً، العتمة طاغية، والصمت يملأ تجاويف (الخرابة)، أنت تعرف الأبواب الداخلية جيداً، ترامقها، لا ترى شيئاً، تنصت... لا حركة. تعود إلى الذهن أصوات الخطوات المهرولة، واحتكاك القطع الحديدية، يحضر تاريخ موغل في القدم. تنبسط بغداد بأسواقها، من هنا مرّت قوافل الحجاج،

وهناك دارت معارك خالدة، انتصر فيها المؤمنون الأخيار على أعداء الله، بشهادة أحفادهم، واندحرت جيوش المرتدين، وساد العدل. على تلك الناصية وقف المعتصم، وصرخ بالقوم، فتدافع إليه خلق كثير، ملبّين نداءه. يبتعد التاريخ أكثر، تتوغّل أيها الواقف المتحيّر، سيّدنا موسى شطر البحر نصفين، يا قوّة الله، عبر بقومه، ونجا مع أتباعه. تحضر إلى ذهنك أسماء وأسماء، دون أن يساعدك حضور أصحابها. كم تحتاج من القوّة لتقرّر؟ أتدخل أم تعود؟ وكم من رجال الدرك داخل (الخرابة)، وكم عددهم وراءك؟ يصوّبون بنادقهم إليك، تضيع في زمان أجوف. الأتراك رحلوا تاركين وراءهم نسلاً لا ينتهي. أتدخل أم تعود؟ لا صوت سوى الصدى، وكلام مكتوب على أوراق تحزّ خاصرتيك، تدغدغك فتضحك، ترغب بالقهقهة، ثم تتراجع. ابن زياد قال في لحظة انكشاف مصيريّ: (البحر من أمامكم...). وأنت ماذا تقول أيها المطوّق برجال الدرك؟

ما أصعب أن تعود!!! وما أصعب أن تدخل!!! فلتبق هكذا، مصلوباً إلى يوم القيامة، تتحوّل إلى عمود رخاميّ، يعلّق عليك الناس نعواتهم، وإعلانات حفلات راقصة. ما رأيك؟ تضيع أفكارك في تجاويف زمن ميت، ما له بداية ولا نهاية، تصير مفردة ضعيفة، متحيّرة،

وضائعة في مصيرها المجهول، أنت الآن في برزخ الوقت، بين زمنين. تدخل، ولا تدخل. تخرج، ولا تخرج. تسقط متهالكاً، يتكسّر رخامك، تنهض مثل تنّين، تجمع أوراقك الّتي تناثرت، ينهمر مطر غزير، يلتقي دجلة بالفرات، يتصافحان، يجرفك السّيل إلى هناك، تقف، تنشّف وجهك بضوء الصّباح، صباح بغداديّ، غير مبالٍ بالأزيز الّذي يتعالى حولك، ولا بالينابيع التي تفور من أنحاء جسدك، تبتسم، ترى المعتصم يخطب أمام خلقٍ كثير، تمرّ قوافل الحجاج و التجار، يضحك النخّاسون، ويهرعون إليك، يقفون حول جسدك الممدّد فوق الرصيف، يزايدون و يضحكون، يختلفون و يتصايحون. وأنت تستسلم لإغفاءة بريئة إلى يوم الدين.

١ الأنبياء

كيف لمقيّدٍ في زنزانة أن يرسم حين يرغب؟ فقط ما ينتجه الخيال يحقّق له رغبته، كما يهدّئ الألم. قبيل مجيء الرّقيب قرّرت ذلك، لكنّه جاء وأبعد القرار. هدّدني:

ـ سأسحب حليب أمّك من عظامك.

هو يستطع، لا أشكّ في ذلك، يتوجّب عليَّ إذاً أن أحاول الحفاظ على نسغٍ امتدّ من أمّي إليّ، عشت عليه أربعين عاماً، ربعها تقريباً في هذا المكان الخانق. أتّكئ على العظام الهشّة، والذّاكرة، والحنين الّذي يتولّد منه نقيضه، على النّظرة المتحدّية، أحسّها سلاحي الأخير. أحاربهم بها، وأخسر. فكم من المعارك دارت؟! أقطّب حاجبيّ عابساً، فيبتسمون بسخرية، وينهالون ضرباً وركلاً. لكلّ رقيب أسلوبه في التّعذيب، وجسدي حقل تجارب فاشلة.

حين هدّدني الرّقيب لم يدع لي مجالاً لأطعنه بنظرتي، فقد حسم نتيجة المعركة قبل بدئها. لم ينظر إلى وجهي، فقط تناول بهدوءٍ كفّي الأيمن وثبّته في آلة صلبة، وبملقطٍ باردٍ التقط ظفر سبّابتي، وبدأ يسحب. شهقت بالمقلوب دون أن أُسمعه. ترك الظّفر معلّقاً، رمقني بنظرةٍ تحمل الكثير من الوعيد، ثمّ ابتسم بلؤمٍ أصفر:

ـ سأتركه لك. فقد يفيدك في حكّ جلدك.

لماذا لا يترك هؤلاء الأظافر تنمو كفاية، فقد تفيد فعلاً في الحكّ، وقد تفيد في مسائل أخرى، لكنّهم ما إن يستطيعوا لقط الأظافر حتى يبادروا إلى نزعها. مرّاتٍ عدّة تبدّلت أظافري.

لم ينسَ الرّقيب أن يبصق ويشتم قبل أن يخرج. صار للّؤم لونٌ في نظري، كما للألم، فقد رأيت لوناً أصفر على وجهه، يشبه إلى حدٍ بعيد لون الألم الّذي تركه قبل أن يخرج. صرت أتحاشى ملامسة أيّ شيء، وحين أنسى يتكهرب جسدي، أعضّ على شفتي وأبتلع قهراً أدمنته. وقبل أن أنام أبعد كفّي الأيمن عن طرف غطاءٍ رقيق، متيبّس ومتّسخ، يحمل بين أليافه روائح لا حصر لها، وكائناتٍ صغيرة لا تنشط إلاّ أثناء الليل، أحبّها، لها فضلٌ عليّ، فقد جعلتني أميّز الليل من النّهار.

أعود إلى الرسم، يأخذني الخيال رجوعاً إلى الماضي، كنت أرسم أشياء حلوة، تحتلّ أمي مساحة واسعة من اللوحة. سأرسمها الآن فوق هذا الجدار، سأزيل تلك الخربشات، الأسماء الركيكة، والقلوب المخترقة بأسهم حادّة مدمّاة الرؤوس، لوحة غريبة شكّلتها أخيلة الروّاد القدامى، كما عبثت بها الأكفّ والأصابع والحشرات. سأجعل اللوحة أكثر غرابة حين أرسم صورة أمي هنا، أمي التي سيسحب الرقيب حليبها من عظامي، أجل، سأرسم صورة أمّ عظيمة، تمنح الحليب والحنان والقوة للروّاد جميعهم.

أقعيت بعيداً ورحت أمسح بنظري الجدار الرماديّ، تناولت ريشتي وألواني وبدأت. الألم يغيب حين تتوضّح معالم أمّ حانية، بوشاح كوشاح العذراء، أجل، أمّنا العذراء، أمّ جميع الأنبياء الذين يرتادون هذا المكان، ليُعذّبوا، ويرسموا.

في أعلى الجدار فتحتُ نافذة كبيرة، ظهرت المدينة خلفها، دخلت إليّ جلبة الشوارع، أصوات الباعة، زعيق العجلات، زقزقة العصافير وشيطنة الأطفال. كل ذلك يدخل بفوضى أحبّها، لكن طقطقة السلسلة الحديدية خارج الباب سدّت عليّ النافذة، وبعثرت معالم اللوحة.

وجهه طافح بالمودّة، جلس قربي وراح يطمئنّ على إصبعي المتورّمة، عبّر عن أسفه لفعلته، وبرّر ذلك بأنه مُجبر. أعادني إلى حنان قديم كدت أنساه، رغبت بالبكاء لكنني لم أفعل. طلب مني أن نتحادث قليلاً وهو يداعب إصبعي المصابة، سحبت يدي برفق، ابتسمت مسامحاً:

ـ لا عليك.

وتهيّأت للحديث. سألني:

ـ كيف جئت إلى هذه الدنيا؟

أسهبت بالشرح، وكأن بي حاجة للكلام، لاحظ ذلك فاختصر:

ـ قبل الطفولة. قبل، قبل.

ـ لم أفهم عليك.

رسم استهجاناً على محيّاه، فتابعت:

ـ ولدت في ربيع عام....

ـ قبل، قبل. قلت لك قبل الولادة. ألا تذكر شيئاً قبل ولادتك؟ من وضعك في رحم أمّك؟ ألا تذكر؟

تغيّرت سحنته وهو يتابع حركاته الساخرة:

ـ ألا تذكر من وضعك في رحم أمّك؟ حسناً، سأجعلك تتذكّر.

أخفضت رأسي حتى لامس ركبتيّ المضمومتين، ربت على كتفي بهدوء، ثم شدّني من قذالي، رفع رأسي حتى تقابل وجهي ووجهه. وجهان مفرطان بالقسوة، قاهر ومقهور، معذِّب ومعذَّب. حاولت أن أستجمع بقايا تلك النظرة، لكنه لم يترك لي وقتاً كافياً، ففي لحظة تشكّلها خبطني بكفّه القاسية، ومضى.

رقباء كثيرون مرّوا عليّ، لم أحقد يوماً على أحد منهم، أراهم عبيداً مأمورين. لكن هذا الرقيب أمره مختلف، هو حاذق متمرّس في مهنته. فكّرت جديّاً بضمّه إلى قائمة الأعداء، وهي ليست طويلة. كيف سأجبره على احترامي؟ لا بدّ قبل ذلك أن يحتقر نفسه، فهل يمكن ذلك؟ وهل تكفي نظرتي الحادّة التي لم يسمح لي مرّة بتشكيلها لتشعره بدونيّته؟ غريب هذا العالم، ولشدّة غرابته لم أستطع التأقلم معه، لا خارج هذا المكان ولا داخله، أنا كائن منبوذ.

فجأة يهتزّ خيط الحليب المرن الواصل بين ظفري المعلّق وأنسجة الدماغ. مسحت دمعة دافئة، كتمت ألمي واتّكأت على الجدار، حدّقت إلى الجدار المقابل، بدأت ملامح اللوحة تتشكّل من جديد، عاد الجدار كما كان قبل أن أرسم، كتابات وخربشات وبصمات، ثمّ شفّت

صـورة الأم، وغطّـت كـامـل اللـوحة، اتّـضحت ملامحهـا وبـدأت تتحـرّك، أغمـضت عـينيّ غـير مـصدّق مـا أرى، صدّقوني، بدأت صورة الأم تتحرّك، تميل برأسها وتمسح الزنـزانة. تيقّـنت أن علـيّ ألاّ أُفاجـأ بـشيء. فالمسيح مـشى على سطح المـاء، مـن يستطيع التأكـيد أن المسيح هو من مـشى، وليـست صـورته؟ والـنبيّ الـذي عـرج إلى الـسماء يستطيع أن يخـرج مـن أيّ مكـان، مـن الهواء، مـن الغيم، وأن يهطل متى أراد من سماء صغيرة تحنو على المقهورين، وعلى الأنبياء الصغار.

الـرؤية تـصفو، والقلـب يطـيب، أرى كـل الـناس طيّـبين، مـزّقتُ قائمة الأعداء، حتى ذاك الرقيب بتُّ أحبه. نظـرت إلى أعلى الجدار، حيث النافذة المفتوحة على مدينة لا تقبل أبناء ضـالّين. لأول مـرّة أشـعر بأنني مذنب، نعم أنا مـذنب، وأسـتحقّ مـا يفعلـه بـي هـؤلاء الطيـبون. أغمـضت عـينيّ وأسـندت ظهـري، اصـطدم رأسـي بالجـدار. الجـدار صديق وفيّ، لا يهمّني إن تلقّى رأسي بلطف أو بقسوة.

دخلـت المدينـة مـن الـنافذة حاملـة أشـيائي القديمـة، ابتـسمت بغـبطة، يـا أللّه... مـا أجمـل أن أسـتعيد أشـيائي القديمـة!!! ابتـسمت الأمّ العظـيمة، نـزلت عـن الجـدار واقتربـت مـني، مـسحت علـى شـعري، تـناولت يـديّ

وأنهضتني. اتّسعت النافذة أكثر، فخرجنا. خلف النافذة غابة بكر، امتدّت على مساحة لا يحدّها نظر، غابة لم يعبرها أحد سوانا. الأشجار على جانبيّ الطريق تأخذ أشكال حوريّات عاريات، لا تظهر ملامحهنّ بوضوح، ضفائر طويلة تغطّي بشفافيّة ما امتنع ظهوره، بعض الضفائر ترتفع إلى أعلى لتتحوّل إلى أغصان باسقة. الحوريّات يحملن جراراً ملأى بالحليب، الحليب يتدفّق من الجرار، وينسكب في سواقٍ وأنهار تلفّ الغابة من جهاتها. التفتّ إلى أمي لأسألها، مدّت يدها أمام وجهي آمرة إيّاي بالسكوت، تحوّل ذراعاها إلى جناحين، حملتني وطارت. وهناك فوق الغابة بدأت حديثها:

ـ لا يمكن أن ينتهي الحليب يا بنيّ، لا تحزن حين يهدّدك الرقباء، ألا ترى الحوريّات وجرارهنّ؟ هنّ يوزّعن الحليب على المقهورين في هذه الأرض، لتزداد عظامهم قساوة، ولتتشبّث أظافرهم جيّداً في اللحم، ألا ترى أنهم مهما سحبوا من الأظافر تعود؟! لماذا تخاف إذاً على عظامك؟ هي أيضاً ستمنحها الحوريّات قوة وقساوة.

أنهت الأم حديثها، ابتسمت فرأيت ضوءاً يخرج من ابتسامتها، تركتني أخفق بجناحين نبتا فجأةً، غادرت المكان إلى جهة لا أعرفها، بقيت وحيداً. السماء زرقاء

صافية كما كانت قبل مجيئي إلى الزنزانة. آه... صحيح. أين أنا؟ أين زنزانتي، الجدار واللوحة، الغطاء الرقيق المتيبّس. أين كلّ ذلك؟

وصل إلى سمعي صوت السلسلة الحديديّة، وطقطقة المفاتيح خلف الباب، بقيت مستسلماً لإغفاءة آسرة، لم أرغب بالنظر إلى أحد، ولا إلى شيء. تكشّف وجه الرقيب ذاته، رأيته كائناً شبحيّاً رماديّ اللون، بدّل ابتسامته الساخرة فجأةً إلى نظرة بلهاء وهو يحدّق إلى وجهي المصفرّ والصادم بنظرة عابسة متحدّية.

زيزان ابن سكابا

من يصدّق أن يصير لابن سكابا كل هذه الحظوة؟ اسمه ينتشر مثل ريح السموم، فيأمر وينهى، يجوِّع ويشبع، يمرض ويطبّب، ولا ينقصه إلاّ أن.....، أستغفر الله العظيم، حاشى أن يشبَّه بصفاته غيره.

معظمنا يذكر ابن سكابا الرذيل، بل ما من أحد منّا إلاّ ويحمل في ذاكرته مقلباً من مقالبه، أو أذيّة من أذيّاته. المقالب تضحكنا بسخرية مريرة، والأذى يجعلنا نمتعض لذكره. كان ذلك منذ زمان، أيّام الطفولة والصّبا. حين نختلف مع أولاد الحارة الغربيّة نترك أمر التهديد والسخرية له، فيقوم بأكثر مما ينبغي، يأخذ مسافة أمان بينه وبين أكبرهم، يمدّ يده بين ساقيه ويصرخ (هذا في أمهاتكم) نستحي قليلاً، لكننا نشعر بالنصر، ويتخاذل الأعداء وينهزمون. ونعود منتصرين بفضل ابن سكابا، يتأمّر بعد ذلك علينا ويتسيّد، تُنفَّذ أوامره بطواعية ورضا، فلا سبيل لكسب ودّه غير ذلك.

على طريق الوادي بلاطة كبيرة، ما زالت حتى الآن، استعصت على الآليّات المجنزرة حين قرروا شقّ الطريق، فأبعدوه عنها، كنا نجتمع نحن أولاد الحارتين فوقها، نجمع الزيزان لابن سكابا، فيربط أرجلها بخيوط طويلة، يجمع أطراف الخيوط في كفّه، تطير الزيزان حوله على شكل مروحة، ثم تتعب فتتدلّى، ويتعب هو من الدوران، فيجلس على البلاطة، ونتحلّق حوله مستمتعين بأفلامه مع الزيزان. يرسل كل زيز في اتّجاه ويكلّمه آمراً إيّاه باستكشاف الطريق في جهة ما، ثم يعود الزيز، يستطلع منه ابن سكابا، فيكافئه إن هو عاد بأخبار جيّدة، ويعاقبه إن خلا وفاضه. وكنا نصدّق أن هناك لغة مُتفاهم عليها بينه وبين زيزانه. وقبل المغيب يبني بيتاً من الحجارة الصغيرة، يحبس فيه زيزانه إلى الغد.

الآن اختلفت اللعبة، ربّما كبرت وازدادت تعقيداً، لكنه ما زال ماهراً على ما يبدو، فيلعبها بحنكة ونجاح، مقدرة أوصلته إلى ما هو عليه. نجتمع معه أحياناً فيتحدّث حديث رجال مهمّين، وعقلاء. كثيرون في قريتنا وفي القرى المجاورة يعقدون عليه آمالهم في تحسين الحالة الخدميّة، وربما المعيشيّة لأهالي هذه القرى، وهو لا يبخل أبداً، خدمات مجانية، لا يريد حمداً ولا شكوراً، أستغفر الله مرّة أخرى حين أقول ذلك، وأتحدّث عنه بهذه

الطريقة، كم من زملائنا يعرف حقيقته؟ ربّما قليلون، وربّما لا أحد غيري، لذلك ينظر إليّ بازدراء وتهديد مبطّن، يكلّمني بلباقة تجعله محترماً أمام الآخرين، وتجعلني مُداناً لأخذي هذه الصورة عنه. لا أحد يصدّقني، والكل يصدّقونه.

ـ أنت تظلمه يا رجل. هو خدوم ونبيل، ووفيّ لأبناء بلده.

ـ أتمنّى أن أكون مخطئاً. لكنني لا أظنّ.

حين أتذكّر مدرّس التاريخ الذي غاب في يوم دامس ولم يعد، أشعر بالقهر، وأتّهم ابن سكابا. أتذكّر حريق مبنى البلديّة وبراءة الجميع من الفعل، وتحويله إلى قضاء وقدر، أتّهم ابن سكابا. وربّما يتهكّم أحد الأصدقاء لائماً إيّاي:

ـ لا ينقصنا إلاّ أن نتّهمه بافتعال الأعاصير، أو رمي النيازك.

أتأمّل تصرّفاته الآن، وأتذكّر أيّام (الولدنة). هو لم يتغيّر، وإنّما كبر وكبرت ألعابه. ونحن ما زلنا نتقبّلها كما كنا نتقبّلها فوق البلاطة على طريق الوادي. الزيزان تحوّلت إلى بشر، وبيتها الصغير المبني من الحصى، تحوّل

إلى نوادٍ ومقاهٍ ودوائر رسميّة، ومدارس متعددة يشرف عليها ابن سكابا من بعيد.

لم أكن أتوقّع أن إثبات الظنون يحتاج كل هذه التضحية، وربّما نضحّي من أجل إثبات ما نظنّه حقيقة فتكون التضحية مجانية، فلا حقائق يمكن إثباتها، ولا ظنون تتحوّل إلى قناعات تمكّننا من الخروج من دائرة الشكّ. لو كنت أعرف ذلك لما مشيت هذا الطريق، ولما قادتني خطّتي إلى هنا، حتى إنني لم أكن قد بدأتها، وكأنّ ابن سكابا اكتشف ما أفكّر به فاستبق خطواتي الأولى، وأرسل لي:

ـ ألم تعِ بعد نهاية من يفكّر باللعب بذيله؟

سأقطع ذلك الذيل حين أخرج، أقسم على ذلك. الآن أيضاً أعود إلى لعبة الزيزان، لم يكن لها ذيول، لكن ابن سكابا كان يربط لها ذيولاً طويلة، ولا ينسى أن يجمع أطرافها في يده. إذاً هو يقطع الذيل أولاً ثمّ يربط الذيول كما يريد، ويحرّك أصحابها كما يريد. بتُّ أخاف أن أنضمّ إلى زيزانه، ذلك أمر لا أطيقه، فهل أُجبر عليه؟

منذ مدّة جاءني شخصيّاً، طلب زيارتي فخرجت، كان برفقته أربعة رجال، لم أعرف تلك الساعة أأفرح لمرآه أم أحقد عليه؟ مؤكّد أن أهل قريتي لا يساورهم أيّ

شكّ في نظافته ونزاهته. وأنه لا يمكن إلاّ أن يساعدني بعد أن قادني طول لساني، وربّما أمور أخرى إلى هذا القبو. وإن كان بعضهم سيشكّ فابن سكابا كفيل بإبعاد الشكوك كلها من حوله، ونسج قناعات أخرى في الرؤوس البليدة.

قال لي:

ـ سامحك الله، أهذه أمور تفعلها يا رجل؟

رمقته بازدراء دون أن أتكلم، وحدّق إليّ بخبث أبدل به سريعاً نظرة إشفاق تؤكّد أنه لا ينسى أبناء بلدته، ولا صداقات أيام زمان، راح يمازحني:

ـ أتذكر أيّام الولدنة؟ كم كنت عاقلاً، ولا أشكّ أنك ما زلت كذلك، وإن زلّ اللسان ببعض الكلام، فهذا مقدور عليه، أستطيع مساعدتك وإخراجك من هنا، ولكن أرجو ألاّ تحرجني في القادم من الأيام، فأنا سأكفلك، سأخرجك على كفالتي. اتّفقنا؟

رغبت أن أرفض خدمته، فكّرت بذلك قليلاً، لكن رطوبة القبو، ورائحة العفونة، والنزلاء السيّئين جعلني أصمت. فلا بأس أن أخرج، لا يهمّني الطريقة التي أخرج بها. وليست بطولة ولا كبرياء أن أرفض خروجي على يديه. لأنني على قناعة أنه يستطيع إبقائي مدى الحياة،

وربّما يستطيع أيضاً أن يسرع في إنهاء حياتي. لذلك يتوجّب عليّ أن أقبل عرضه، بل العرفان بالجميل يُلزمني بشكره والامتنان له.

قررت أن أبقى قويّاً فلا أتكلّم، حين يسألني أشير بحركة من رأسي، وبلا مبالاة أثارت غيظه أكثر من مرّة، كان يعبّر أحياناً عن حنقه، لكنه كعادته سرعان ما يبتسم بخبث، أفرح حين أراه على تلك الحالة، أعجبتني مقدرتي على الصمت الذي عرف كيف يزيحه قبل أن تنتهي الزيارة. أرغمني على الكلام حين مدّ يده إليّ ببعض النقود، شكرته ببرود، وحرصت أن يكون رفضي مقبولاً من جانبه، أقنعته بعدم حاجتي إلى المال، ووعدته ألاّ أطلب إلاّ منه حين أحتاج. وعدني بخروجي القريب ضامناً موافقتي على كل تعليماته، على الرغم من أنني لم أوافق، ولم أعده بشيء مما يعتقده ويأمله.

شيء يشبه الانكسار حملته معي عائداً إلى القبو، ابتسم الشرطيّ في وجهي وراح يتقرّب مني حين عرف أن ابن سكابا من معارفي. لا أنكر أن معاملتي في السجن اختلفت، صار الرقباء يدللونني، وصار زملائي يخشونني. أمور لا علاقة لي بها جعلتني شخصاً غير مرغوب بوجوده، لا من الرقباء، ولا من الزملاء، فالرقباء لم يعتادوا بعد

على وجود سجين خارج عن سيطرتهم، ولا الزملاء يستطيعون أن يتقبّلوا بينهم شخصاً يحبه الرقباء. صرت بين الطرفين عنصراً نافراً. حاولت أكثر من مرّة أمام زملائي إثبات براءتي مما يعتقدون، لكنني أعذرهم حين لا يصدّقونني. فلو كنت مكان أحد منهم لشككت كما يشكّون.

حين خرجت نقلني بسيّارته، لم أستطع الرفض على الرغم من رغبتي. جلست قربه مغلوباً على أمري، ورحت أستمع إلى أحاديثه المختلطة بغناء مطرب من الدرجة الخامسة أو السادسة، أولئك الذين نسميهم مطربيّ الكراجات، وكم كان ابن سكابا مقرفاً وهو يتمايل مع الأغاني الهابطة.

حين زارني مساءً، بقيت زيزانه في الخارج تحرس السيّارة، وتستكشف له الأجواء بدقّة. كانت السهرة لطيفة قبل وصوله، وسرعان ما تغيّرت مع صوته القويّ وابتسامته الخبيثة. حاولت ضبط لساني أكثر مما أستطيع احتماله. حكى عن التعاون، عن الوطنيّة، عن الخيانة، وعن النذالة، عن البطولة والشهامة. لم يترك قيمة لم يذكرها، يفرزها سريعاً فيعبّر عن مقته للقضايا المعيبة، وفخره بالقيم الفاضلة. كل ذلك عبر ملامح وجهه

الـتي تـصعب علـى القـراءة إلاّ لمـن يـستطيع الدخـول إلى الأعمـاق. وكـنت قـادراً علـى ذلـك، أو هكـذا اعـتقدت، نهضت واقفـاً حين كان الجميع يؤيّدون آراءه، نظرت إليه باحتقار:

ــ أنـت يـا بـن سـكابا لا تـستطيع إلاّ إعادتـي إلى السجن، وأنـا شخـصيّاً لا مانـع لـديّ، ولكـن لـي رجـاء أو طلـب واحـد، هـو ألاّ تزورنـي إطلاقـاً، فـلا أرغـب بـرؤية وجهك.

ليلة العبور

نترت ذراعي من قبضاتهم، أحاطوا بي وتركوني أتقدّم باتجاه المنصة، تلفتّ حولي، رأيت الرجال جامدين كالأصنام، بنادقهم متأهّبة، ونظرهم لا يحيد عنّي. عبست محدّقاً إلى البعيد، لم أفاجأ بهذه النهاية لأنني أترقّبها، الناس يرونها نهاية، أمّا أنا فلا أراها كذلك، فحين يعبر الرأس هذه الحلقة المعلّقة في حبل، ويبقى الجسد خارجها، فذلك احتفاء خاص.احتفاء يقيمه الجسد تكريماً للرأس في لحظة عبوره الأخير، سوف يثمل الرأس، ويرقص الجسد مرتعشاً قبل أن يهمد مباركاً متعة الغياب.

جمعت ما أستطيع من القهر، وقوّة جعلت منّي قائداً، وصعدت. الحبل يهتزّ بهدوء، والحلقة تتمايل كراقصة جميلة، أمسكها رجلٌ بيديه الاثنتين، وقرّبها من وجهي، نظرت إليه، كانت ملامحه رماديّة، ونظراته باردة.

تذكّرت الشّيخ الّذي لقّنني عبارات نسيتها الآن، لكنّني أذكر وجهه جيّداً، لم يكن كوجه هذا الرّجل الّذي يتهيّأ لتطويق عنقي. أعرف أنّ عليّ أن أنطق بالشّهادتين، أحسست بأنّ الله قريب، يتطلّع إليّ من فوق، يرى مأساتي دون أن يغضب، هو سرّ الحكمة ما يحدث الآن، هو يخلق النّاس درجات، والسّماوات سبعاً، في أيّة درجةٍ أنا؟ وكم سيلزمني من وقت لأنهي معراجي؟! رجوت الله أن يسرّع في صعودي، كما رجوته ألاّ يتخلّى عن أصدقائي، أن يذهب إليهم، يخطّط معهم لمعركةٍ ناجحة، وأن يدخل أدمغتهم ليحرّض فيها كشفاً عن أساليب تكفل لهم إكمال الطّريق، وأن يعينهم في اختيار قائدٍ بديل.

حين صعدت الدّرجة الأولى جاءت روح عمر المختار، سكنتني قليلاً، ثمّ نأت، رأيت خياله يتأرجح أمامي، ثمّ يبتعد، حاولت التمسّك به، لكنّه توارى كغيمةٍ يصعب الاحتفاظ بها، تلاشت صورته في فضاءٍ كثيف، أغمضت محاولاً استعادة الصّورة، تنفّست بعمق، ربّما أستطيع سحب الرّوح المختارّيّة من الفضاء المحيط. عبثاً أحاول، فالحبل بدأ يضيق حول عنقي، وبعد لحظات ستدفع خشبة من تحت قدميّ، وأتأرجح كما تأرجح هو ذات تاريخ. كلّ ذلك أعرفه، ولكن ما يهمّني الآن أن أرى السّماء الأولى، حينذاك فقط تتبدّل المعارف جميعها، ويصير

للحياة شكلٌ آخر، وللموت أيضاً شكلٌ آخر، وقد يصير حياةً خالدة.

حين وصفونا بالمتمرّدين، بشذّاذ الآفاق وقطّاع الطّرق لم يكونوا يعرفون أنّهم يسبغون علينا صفاتهم، لم نكن نهتم. نحن نعرف اللعبة جيّداً، نعرف أنّنا محقّون، وأنّ البلاد الجميلة يكفيها بعض النّاس الصّادقين لتحافظ على جمالها من أجلهم. كنّا صادقين حين منعنا (الخواجات) من عبور النّهر، خالفنا أوامر القيادة، وصدقنا مع أنفسنا، ومع بلادنا الجميلة أيضاً، فلا جمالها يقتضي بأن نساعد أو نهتمّ بعبور الخواجات، وحماية بضائعهم، ولا رضا النّبلاء عن أنفسهم يقتضي ذلك، فهل كنّا نبلاء بالفعل؟ أم أنّنا خَوَنة؟ وإن كنت خائناً فلماذا ترتسم علائم الحزن على وجوه هؤلاء النّاس بدلاً من أن يفرحوا؟ حين حاولنا معرفة البضاعة ضمن الصّناديق منعونا متذرّعين بضرورة كتم السّرّ عن محتوى ما ينقلون، ثمّ راحوا يسخرون منّا بطريقة لا يتحمّلها من يملك الحدّ الأدنى من الكبرياء.

هل حسبنا حساباً لهذه النهاية؟ ربما لم نحسب ذلك في لحظة الحسم، لكننا نعرف تماماً أن مخالفة الأوامر تقود إلى نهاية شبيهة بما أنتهي إليه الآن. ونحن لم نخالف

الأوامر فقط، وإنما تحوّل خلافنا مع هؤلاء العابرين إلى معركة صغيرة خرجنا منها سالمين، حملنا بعضاً من صناديق البضاعة وتركناهم يرطنون بشتائم لا نفهمها، يصرخون، يولولون، يجمعون قتلاهم وجرحاهم بحركات هستيريّة. لم نعد إلى المعسكر، بل قررنا التمرّد والعصيان، فتمرّدنا وعصينا، صار لنا مهمّات أخرى، في مقدّمتها مهمّة حماية نهرنا العظيم من دنس العابرين. لم نقرر ذلك رغبة منا بالتمرّد، وإنما رفض دليل براءتنا دفعنا إلى ذلك. البضاعة كانت ذلك الدليل، وكانت دليلاً أيضاً لحقّنا في منع العبور، ودخول معركة فُرضت علينا. بعض الزملاء حملوا البضاعة لتسليمها إلى القيادة، فوجئنا بالعقاب القاسي ينتظرهم، كما فوجئنا أن البضاعة حصّة الزعيم من صفقة لا يمكن أن نراها مشروعة. آمنّا بعد ذلك بقدرنا وبواجبنا، فغدونا متمرّدين، وقطّاع طرق.

الآن ماذا يفيد هذا الكلام؟ العقدة تنسحب والحلقة تضيق، الأفق يتّسع اتساعاً غريباً، أغمض عينيّ وأسافر، الأصدقاء مرتبكون قليلاً، أحاول تشجيعهم، رغبت بأن أعرض عليهم خطّتي لمتابعة الطريق، لكن طيف عمر المختار عاد ثانية، لحيته تتأرجح، تملأ الأفق كحقل من الفلّ، عباءته تمنحني دفئاً ومفخرة لا حدود لها. أجل هو

الفخر ما يجعلني أبتسم بنشوة، فلا ضيق التنفّس يمنع الانتشاء، ولا الاختناق الداهم قادر على إخراجي من فضاء رحب عطر. حاولت أن أتذكّر الكلمات التي لقّنني إيّاها الشيخ، اندغمت فجأة في حشرجة حادّة، مدّ المختار يده صوبي، أمسك معصمي وسحبني إليه مرحّباً بقدوم أحد أحفاده، أصعدني إلى قمّة جبل، وكان طريق الصعود سهلاً. جلست هناك مفعماً بالسرور، هبط نظري إلى الأسفل، رأيت أشباحاً تخرج من وادٍ عميق، تحاول تسلّق جبل أجلس في قمّته. وحولي كانت الحجارة تتدحرج وتتهاوى ساقطة. ريح شرقيّة تحمل الأشواك وتسفّها هبوطاً باتّجاه الوادي. الحجارة تزداد عدداً وحجماً، والأشباح تحاول تحاشيها فلا تستطيع، تتمايل كأغصان غابة داهمها حريق، وترك أشجارها عارية سوداء، وأنا في القمّة ما أزال.

شعرت بالارتفاع قليلاً، وكأنني طائر ضخم يتعلّم الطيران، جاءني المختار وأخذ بيدي، دائماً يجيئني هذا الرائع الأبيض، راح يؤرجحني صعوداً وهبوطاً، أعاد الكرّة مراراً، وكنت أرى شفتيه تتحركان، ولا أسمع شيئاً. حلّقت عالياً برفقته، سألته عن السماء الأولى، فلم يجب، وتابع تدريبي. حدّقت إليه فرأيته ينحني وكأنه يصلّي. يا ألله... كم أحتاج من التعلّم والموت لأصير مثله!!!

الجفاف في الحلق، والأجفان تتقارب وتتباعد في محاولة لرؤية شيء ما. لا أذكر متى دفعوا الخشبة من تحت قدميّ فتعلّقت هكذا. الناس حولي بدؤوا ينضمّون إلى أشباح الوادي، يتّحدون معهم، يصفّقون ويرقصون. الزعيم يفرش بضاعته، يعرضها منادياً، وكأنه بائع جوّال، أو نخّاس في السوق. سقطت أمطار غزيرة حتى طاف النهر، عدت إلى قمّة الجبل، رأيت فيض المياه بلون النحاس الصدئ على الضفّتين، انغسلت الصخور حتى بدت بكامل نصاعتها. الخواجات ذاتهم يتخبّطون في الماء الموحل، يجرفهم النهر فيسقطون، والزعيم يرنو إليهم دون اكتراث، ينادي على بضاعته، يجتمع الناس حوله، ثم يمضون مشمئزّين، يبصقون ويتابعون سيرهم.

يغيم الفضاء حولي، وتبدو الرؤية صعبة. أسمع رفيف أجنحة تقترب مني، تحاول الوصول إليّ، فتردّها ريح معاكسة. أين أنا؟ ومن أصحاب تلك الأجنحة؟ لا يمكنني رؤيتهم، عبثاً أحاول، أقلّص عينيّ وأدقق في جهات المكان، لا أثر لشيء، فراغ دون حدود، وكأنه السماء الأولى. ما زلت أطير، ناديت المختار، فتعالت أصوات الأجنحة. انكشف الفضاء قليلاً، لمحت أصدقائي يتحلّقون هناك في البعيد، يرسمون خرائط بطرق

متشابكة، يتحيّرون متلفّتين حولهم. ليتني أستطيع الوصول إليهم. صرخت:

ـ ما هكذا تُرسم الخرائط.

اقترب المختار منّي، وضع كفّه المباركة على كتفي، فاستسلمت لخدر منعش، تنفّست بعمق وامتلأت بالغبطة. ابتسم في وجهي:

ـ دعهم يرسمون ويخططون. ثق بهم فهم أصدقاؤك.

همست بحزن وخوف:

ـ إنها البلاد يا سيّدي. بلادنا الجميلة. مصيرها بين أيديهم، يجب أن أعلّمهم كيف يرسمون، فالوضع كما تعرف لا يحتمل الخطأ.

هزّ رأسه، قطّب جبينه وقال بحدّة وهدوء:

ـ وهل تظنّهم يخطئون؟

ـ قد يخطئون يا سيّدي. أرجوك دعني أعلّمهم.

وقبل أن يستدير ويمضي وضع كفّه الأخرى على كتفي:

ـ دعهم يخططون، واهتمّ بشؤونك.

تركني ومضى. أدرت وجهي إليه، تحوّل إلى غيمة داكنة، طارت بعيداً بعيداً، وهناك في الفضاء الكثيف

أبرقت، هطل منها مطر غزير، تحوّلت الدنيا حبالاً من المطر تربط الأرض بالمختار.

لمّ الأصدقاء خرائطهم وهرعوا، صرخت بهم محذّراً، تحوّل الصراخ رعداً يصمّ الآذان، والغيمة المختاريّة عادت إلى صفائها، بيضاء كالزّبد، صفا الفضاء كلّه، نظرت إلى الأسفل، ما زال الرجال جامدين، وما زالت بنادقهم مصوّبة صوب المنصّة، ابتسمت بسخرية حين لمحت جلبابي الأخضر يتمايل أمامهم معلّقاً في حبل وحلقة، بدأ بعضهم يتحرّكون، يقتربون من الجلباب، يحاولون نزعه من الحلقة، يرتمي بينهم ويتكوّم فوق المنصّة، يزداد الرجال حوله وينقلونه بعيداً إلى عربة تنتظر. كان عمر المختار يغيّر شكله، أخذت غيمته تنكمش لتتحوّل إلى ناسك، ثم يتغيّر شكلها مرّة أخرى، تتبعثر، تصير كتيبة من الفدائيين يتراكضون بطريقة منظّمة وذكيّة. ابتسمت برضا وحبور، ورحت أتذكّر جسدي المعلّق، كيف أعود ثانية إلى الحبل؟ لا أدري!!! تحوّلت الحلقة وحبلها إلى نسيج حيّ من لحم ودم، أتنفّس من خلاله. حلّقت إلى الأعلى مرّة أخرى مجتازاً ما ظننته سماء أولى تاركاً الأشباح السوداء مستسلمة لغبائها، تنظر إلى جسدي المجلبب بالأخضر،

تـتلمّس أعـناقها الدقـيقة، تتراجـع مذعـورة كخـراف مـرعوبة. وكـان أصـدقائي يهجمـون، يحملـون خـرائطهم وقهـرهم المـزمن، وغـيمة عمـر المخـتار تـتهادى فـوقهم، وتمـنحهم قـوّة سـتجعلهم قـادرين علـى اعـتلاء المنـصّة، والتقدّم من الحبال المتأرجحة بحلقات لا تُحصى.

دائماً يولدون

أفاقت المدينة على صوت الأبواق، تناقل الناس الخبر سريعاً، اكتظّت الساحة بالوافدين، خرج الحاكم و معاونوه، جلسوا خلف المنصّة، تنحنح الحاكم فصمت الناس، قرأ كلاماً غير واضح، ثم صاح بصوت حادّ: هاتوه.

امتدّت الأيدي صوبي، أمسكتني قبضات قاسية، ألقاني الرجال أرضاً، وسحلوني في الساحة المتربة، وجهي إلى السماء، وظهري ينكشط ويتآكل، أغمضت على ألم فظيع، شهب كثيرة تغزلها عيناي المغمضتان، وتطلقها إلى الأعلى.

كنت سأجيء معهم دون مقاومة، فلماذا يفعلون ذلك؟

((يا ربّ سامحهم، فإنهم لا يعلمون))

رذاذ الماء أعادني إليهم، أوقفوني، فتحت عينيّ، فإذا أنا أمام الحاكم وجهاً لوجه. نظر إليّ بكراهية:

- أصحيح أن الحلاج جدّك يا فتى؟

حاولت الكلام، لكزني شرطيّ آمراً:

- أجب عن سؤال الحاكم. هيّا.

أعدت المحاولة، فلا يليق أن أبقى صامتاً أمام حاكم المدينة، هو يطلب منّي أن أتكلّم. شفتاي تحرّكتا دون كلام، رشقوني بالماء مرّة أخرى، ارتجفت، وشهقت:

- هو جدّي بالفعل، أيّها الحاكم.

ابتسم بسخريةٍ، ثمّ التفت إلى معاونه بوقار:

- سجّل أيّها المعاون، نحن هنا لا نظلم أحداً.

وارتفع الهتاف بحياة الحاكم، ضجّت السّاحة بالهتاف والأدعية، وراحت الجروح في ظهري تصرخ. بان الألم جليّاً على تقاسيم وجهي، وجه الحاكم أمامي، يتكلّم فلا أسمع، لكزني الشّرطيّ مرّةً أخرى، تنبّهت:

- أترغب بالجلوس؟.

- لا أيّها الحاكم، ذلك غير لائق.

التفت إلى الرّجال المحيطين بي مشيراً إليهم ليجلسوني، صاح الشّرطيُّ الّذي إلى يميني، والّذي يلكزني دائماً: اجلس.

حاولت الجلوس امتثالاً لأمره، فلم أستطع. كانت الأصفاد تشدّني أكثر إلى صليبي، والجروح حائرة بين رغبةٍ في الجلوس، وعجزٍ عنه.

لم أكن أشعر بأيّ عداوةٍ تجاه هؤلاء الناس، فلماذا يفرحون لعذابي؟

أغيب عن الوعي ثانيةً، ثمّ أعود إليه برشقة ماء.

الحاكم يسأل، والمعاون يكتب:

ـ نحن لا نظلم أحداً أيّها الفتى، أمامك فرصةٌ أخرى، تستطيع فيها التّراجع عن أقوالك، أمتأكّد أنّ الحلاّج جدّك.؟

ـ أجل أيّها الحاكم، إنه جدّي وكان بيتنا في وسط حقلٍ واسعٍ من الزّهر الأبيض، كان لدينا مزرعة خيول، ورفوف من الحمام، ومكتبة. الحلاّج جدّي أيُّها الحاكم، صدّقني.

ظننت أنّني أدافع عن نفسي، فالانتساب إلى الحلاج مفخرة، وأنّه يشفع لي إن كنت قد أخطأت، ولا أظنّ أنّني أخطأت يوماً بحقِّ هؤلاء النّاس الطّيبين، ولا بحقّ الحاكم.

ـ أمامك خياران، إمّا أن تتبرّأ من جدّك الحلاج، وإمّا أن تدفع ضريبة نسبك هذا. والضّريبة قاسية، قد لا

تتحمّلها أيّها الفتى، أنصحك بالتّبرّؤ من جدّك. ذلك أفضل لك.

المعاون يكتب كلّ ما يقوله الحاكم، وجدت نفسي أدخل دوّامةً، لن أستطيع الخلاص منها، لست من يتخلّى عن نسبه. نظرت إلى النّاس المحتشدين في السّاحة، رأيتهم أصناماً مشدوهةً ببلاهة.

ـ ماذا قلت؟

عليّ أن أجيب، فأنا في حضرة حاكم المدينة، استجمعت آلامي:

ـ جدّي الحلاج قدوتي أيّها الحاكم، ولن أتبرّأ منه.

عيناي توقّفتا عن غزل الشّهب، وحدّقتا إلى المنصّة، التفت الحاكم إلى الرّجال حولي، عبس وصرخ:

ـ أين السيّاف؟

اقترب السيّاف مشمّراً عن ساعدين أسمرين، انحنى أمام الحاكم، ثمّ استدار إليّ، أحبُّ هذا السّياف كثيراً، مثل هذين السّاعدين حرّرا جدّي الحلاج من سجنه، أطلقاه حرّاً في عوالمه العلويّة الفسيحة، غاب الألم من جروحي، وغمر الهدوء ظهري الملتهب. هو الانعتاق إذاً، اللحاق بجدّي يغريني، أنا من عائلةٍ حلاّجيّة أيّها

الحـاكم، نتميّـز جميعـنا بأنّـنا ندفـع ضـريبة النّـسب عـن طيب خاطر.

وصدر الأمر:

ـ هيّا أيّها السيّاف، اقطع ذراعه اليمنى.

ارتفعت أصوات الحشد محيّية العدالة ورمزها.

الـتفتُّ إلى ذراعـي المقطـوعة. أسـراب مـن العـصافير تخـرج مـن الجـرح الـنازف، تحلّق في المكـان، ثمّ تطير إلى أعلـى، أسمـع أصـواتها، فأفـرح، وأفـرح أكثـر حـين أرى الحـاكم ورجالـه يـرمقون عـصافيري برعب، أغمض عينيّ وأستسلم لفرح عارم.

ـ أما زلت مصّراً على انتمائك أيها الحلاّجي؟

حدّقت مستغرباً:

ـ لماذا تريدني أن أتبرّأ من جدّي أيها الحاكم؟

بحلقـت في عـيون كـثيرة، وارتفعـت أصـوات الاسـتنكار مـن حـشود الـناس في الـساحة المتربـة. الـتفت الحاكم إلى معاونه:

ـ سجّل أيها المعاون أننا سمحنا له بالسؤال.

وارتفعـت أدعـية الأصـنام الـبلهاء بحـياة الحـاكم، ودوام عدالـته. ضـحكت بـسخرية، الـتفت الحـاكم إلى الرجال حولي:

ـ خذوه إلى زنزانته.

همست:

((يا رب سامحهم، فهم لا يعلمون))

مرّت الساعات طويلة، زارني خلالها جدّي الحلاّج مواسياً، يا ألله ما أسعدني!! أنا حفيدك أيها الجدّ، فلا تواسني. لديّ رغبة باللحاق بك، وفخور بدفع الضريبة. لي أخوةٌ وأبناء، سيدفعونها أيضاً، يا الله.. ما أجمل وجهك يا جدّي.!!!

رأيت العصافير ترفرف فوق كتفيه وهو يغادرني، ويمضي في ليلٍ مضيء. سحبوني ثانيةً، وسحلوني في السّاحة ذاتها. عاد الألم إلى الجروح، وعادت عيناي تغزلان الشّهب، وتطلقانها إلى أعلى. قال الحاكم:

ـ أما زلت مصرّاً يا فتى.؟

ابتسمت بمودّة، وأشرت له بإصراري.

ـ حسناً، هيّا أيّها السيّاف.

رمقني السيّاف باندهاش، أنا لست عدوّاً لك، ولا لهذه الأصنام البلهاء، أنا أحبّكم، صدّقوني، وأحبّ الحاكم. سقطت ذراعي اليسرى، و خرجت العصافير، رفرفت مبتعدة فوق حشود الناس وشرعت تزقزق و تغنّي ثم غابت منطلقة إلى أعلى.

الألم يغيب، و الرجال يعيدونني إلى الزنزانة. جدّي الحلاّج قدّم لي كوباً من الماء، شربته بسعادة، وكان لذيذاً، ووجه جدّي صار أجمل. وحين تركني مغادراً الزنزانة تبعته طيور كثيرة ملوّنة، تزقزق بموسيقى آسرة، و ترفرف فتضيء المكان بأجنحتها الفضيّة.

ـ تبرّأ من جدّك الحلاّج، و أعدك بأن يتغيّر كل شيء لديك.

لم أجب، لكنني ابتهلت إلى الله أن يسامحهم.

و باشر السيّاف عمله، خرجت أسراب العصافير، امتلأت عيون الرجال حولي بالرعب.

((.. ما أجملكم أيّها الناس)).

تيبّست أعضائي، أحسست بدبيب يسري في كالنسغ، يخرج من الأرض، ويعبر جروحي، ثم يستقّر. توحّدت بخشب الصليب، وتوحدّ الخشب بجسدي، رأيت نفسي أحلّق عالياً، تتبعني طيور كثيرة، ملوّنة، أنظر إلى الأسفل، فأرى الصليب الذي يحملني يتحوّل إلى شجرة باسقة، وعلى أغصانها آلاف الأعشاش.

رأيت دار جدّي، و مساحة الورد الأبيض، رأيت مزرعة الخيول، ورفوف الحمام. رأيت المكتبة تتّسع لتحتلّ مساحة الدار كلّها، ورأيت جدّي يجلس وسط البهو، يقرأ

ويكتب. رأيت الناس يدخلون دارنا ويخرجون، يدخلون بفرح، ويخرجون بفرح.

رأيت حشوداً لا حصر لها تجتمع في الساحة المترية، تبحلق ببلاهة كأصنام بعيون واسعة. رأيت إخوتي و أبنائي يلتصقون بصلبانهم، ويُسحلون في الساحة ذاتها، رأيت المنصّة تنصب، والحاكم يجلس بين معاونيه، السيّاف يستعرض زنديه الأسمرين، و يتقدّم بسيفه ليحرّر عصافيرنا، نحن أفراد عائلةٍ حلاّجية، تخرج العصافير من الجروح، تتقافز في المكان، وتحطّ على أشجارٍ كانت في ما مضى صلباننا.

تزداد الأشجار وتتكاثف، و الساحة المترية تتحوّل إلى غابة من الشجر المزهر، خيول مزرعتنا تعدو في سباقٍ أبديّ، تخبّ تحت الأشجار، وتصهل. وخلف المنصّة ما زال حاكم المدينة يعرض خياراته أمام أبنائنا وأحفادنا، وهم يختارون، يحدّقون إلى أعلى، فيهبط جدّي الحلاّج حاملاً أكواب الماء اللّذيذ إلى أحفاده في زنازن المدينة.

زدني

وقل ربّ زدني...
ربِّ زدني...
زدني.

يا أيّام الصّبا عودي.

كيف ستعود؟ من أين وإلى أين؟ ما زلت شابّاً، ولكن.. اللعنة على هذه العظام المُقوّسة، كيف ستستقيم؟ نصحوني كثيراً بالذّهاب إلى بلاد الغرب، هناك يستطيع الأطبّاء إعادة الشّباب إليَّ. ما زلت شابّاً، أجل، ما زلت. هذه اللمعة في الرّأس، وهذا الإحساس بالفتوّة لا يغيب عنّي. صحيح أنّ أعوامي تجاوزت الأربعين، غير أنّي لا أقنع بأنّ الزّمن يفعل ما فعله بي، هناك أمرٌ آخر. عينٌ حاسدة، بلى، لا بُدّ أن تكون هناك عين حسود، سلّطت أشعّتها صوبي، فتقوّست.

أذكر تلك الأيّام وأشتاق إليها، أيّام الصّبا، كان الجسم كعود خيزران، وكان القلب مفعماً بالهمّة، لكنّ الجيوب كانت فارغة، وحين بدأت مسيرة الامتلاء بدأ الخيزران يهشّ. لن يعود الماضي، أُدرك ذلك تماماً، لكنّني أدرك أيضاً أنّ في هذا العالم من يستطيع حلّ مشكلتي، هي مشكلةٌ مستعصية، هكذا يصفها الأطبّاء، كرهت تلك الكلمة، وصرت أمقت الأطبّاء جميعاً، أنظر إلى وجوههم فأرى نظرات الإشفاق ممزوجة بحسد كريه، وبشماتةٍ مبطّنة. لا شكّ أنّ أولئك الملاعين يغتابونني حين أُغادرهم، كأنّني أسمع أصواتهم (يستحقُّ أكثر من ذلك)، (اللعنة عليه وعلى أمثاله)، (أحسن ما فيه أمواله)، (بل هي أسوأ ما فيه). وتلك الصّبيّة الجميلة الّتي غازلتُها حين أتت لتقيس حرارتي، ابتسمت بقرف، أنهت مهمّتها بصمت وعادت مسرعة، كأنّني أسمع صوتها وهي تعلّق على ما يقول زملاؤها: (كلُّ ما فيه سيّء، إنّه سبب مآسينا).

الشّيوخ ذوو العمائم، أصحاب الوجوه المكتنزة، يتناولون ما أقدّمه لهم، ينحنون أمامي كعبيد، ثمّ ينسحبون والدّعوات لا تفارق شفاههم، (اللّه يزيدك)، حتّى هذه بتّ أكرهها، أراها دعاءً منافقاً، حتّى في معناها، هي جملة مراوغة، تحمل وجوهاً كثيرة بمعانٍ

مختلفة. بتّ أشكّ بالنّاس جميعاً، حتّى أمّي أشكّ بأمومتها، هي لم تقبل منّي هديّة منذ اختلفت هداياي. أذكر أنّني كنت صغيراً، أسمع بعيد الأمّ، فأهرع حين يجيء العيد إلى البراري، أجمع لها باقة ورد، تأخذها بسعادة عارمة، تشمّها وتقبّلني، ترفع وجهها ويديها إلى السّماء:

ـ اللّه ينجّحك، ويحميك.

نجحت يا أمّي، ولكن اللّه لم يحمني. استجاب اللّه لنصف الدّعاء، وترك النّصف الآخر في مهبّ المرض. لماذا لا تقبلين هداياي كما كُنت تقبلينها؟ ألأنّني نجحت؟ أم لأنّ اللّه لم يحمني؟ تتحاشين رؤيتي، ألأنّني مريض، لا. أنا على يقين من ذلك، فليس هناك أمّ في الدّنيا تتهرّب من ابنها المريض. هل الغنى عيب يا أمّي؟ هل تريدين منّي أن أرفس النّعمة حين تجيء؟ كلّ النّاس يقولون عنها نعمة، إلاّ أنت.

مدير المؤسّسة وأتباعه يريدونني أن أذهب خارج البلاد للعلاج، هم يعرفون أنّ علاجي هناك ستطول مدّته، لا بُدّ حينذاك من تعيين أحد مكاني، وكم من الزّملاء الأعزّاء يرغبون بذلك؟! هذا المدير يتظاهر بمحبّة شديدة لي، لكنّه لا يختلف عن ذوي العمائم، يأخذ حصّته كلّ

شهر، ثمّ ينحني راجياً أن أتوسّط له لدى معارفي، وأن نبقى على عهدنا، صديقين. ثمّ يتبع طقوسه تلك بالجملة ذاتها (اللّه يزيدك).

ربٍّ لا تستجب لهم، ولا تزدني. لست راغباً في المزيد، لديّ ما يكفي من المال والعلل، ولديك ما يفيض من الرّحمة، فهل لي بشيءٍ منها؟ إن كانت التّوبة تعيد إليّ شبابي فأنا مستعدٌّ لها، ولكن من يضمن لي النّتيجة؟ امنحني العافية يا ربّ، وسأتوب توبة صادقة.

ـ (وتعيد ما سرقته؟؟!!).

ما هذا الصّوت؟ من أين يأتي؟ النّاس نيام، وأنا وحيد في غرفتي. كأنّه أتى من النّافذة، أهرع إليها، لا أحد هناك. أمِن تلك الزّاوية؟ المكان خالٍ.

ـ (ما بك يا من سوف تتوب؟ أجبني، هل تعيد ما سرقته؟؟!!).

هل أصرخ؟ أأجيب عن السّؤال بصراخ، أم همساً؟ لا أدري، ولا أدري إن كنت مستعدّاً لإعادة النّعمة، نعمة، نعمة يا ناس، فهل أرفسها؟ أأسأل أم أتساءل؟ أنا من أتّهم نفسي بالسّرقة، نعم، الصّوت السّائل خرج من هنا، من عظامي المُقوّسة، من نقيّ العظام. أسأل وأستبعد الإجابة.

هناك أسئلة لا نستطيع الإجابة عنها، الأمور دائماً كذلك، لا نعرف، لا نريد ، لسنا مُتأكّدين. وبين الحسم والإطالة يضيع العمر دون أن نحدّد ما نريد، وما نستطيع. أستاذ الفلسفة كان يقول ذلك. الأستاذ الذي تحوّل إلى شيخٍ بلحية وعمامة، وصار يأتي إليّ، يعرض أمامي ابتهالاته وأدعيته، أشتريها، أدفع ثمنها، فينحني أمامي قبل أن يخرج.

هل مضى عمره أيضاً دون أن يحدّد الإجابة؟ وهل تساءل أم سأل مرّة لماذا يأتي، ولماذا ينحني؟ لماذا يعرض بضاعته أمامي؟ أنا المُتّهم منذ بدأت الجيوب بالامتلاء بأنّني سارق، مرتشٍ ومأواي النّار، خالداً مُخلَّداً.

دائماً تراودني فكرة الخلود، وكم رغبت أن أحظى به، تعجبني المعتقدات الفرعونيّة، سأحاول بناء هرم، بل سأبنيه جاعلاً فيه ضريحي. أنا المحروم من كلّ شيء، والقادر على أشياء كثيرة، لا يقدر عليها غيري. قادر أن أجعل من قريتي مركزاً حيويّاً عامراً بالحركة، تجارةً وصناعةً وعلوماً. ومن أهلها ما يتوقون إليه، قادر أن أغيّب مدير المؤسّسة عن هذه الدّنيا، أو أن أجعله موظّفاً صغيراً في بلدة نائية. قادرٌ على جمع أجمل فتيات هذه البلاد كمحظيّات. لكنّني غير قادر أن ألتقي بإحداهنّ. ما هذه

المفارقة؟ فتيات ينتظرن منّي إشارة فلا أجرؤ على التّلويح بها. آه لو يعود الصّبا يوماً، لو أعود كما كنت شابّاً يافعاً قادراً على إخصاب الهواء.

ـ (فقيراً أم غنيّاً ترغب بالعودة؟؟).

هو الصّوت مرّةً أُخرى يخرج من النّخاع، يسأل، ولا أستطيع الإجابة، فأنا لا أعرف. اللعنة على أستاذ الفلسفة، لا شكّ أنّه هو من يحرّض الذّاكرة الآن، فأسأل الأسئلة ذاتها، وأجيب بعدم الإجابة. سأسأله حين يأتي إليَّ غداً ليبيعني أدعيته، هل من جوابٍ لديه؟ أم أنّه ما زال يفتقده؟

سأسأل مدير المؤسّسة، سأخيّره بين أن يبقى كما هو، أو أن يصير مثلي، لا شكّ أنّه سيشمئزّ، سينظر إلى انحناء ظهري، يبتعد عنّي مرعوباً ويتمتم: (اللهم عافِنا) وربّما لا يجرؤ على النّطق بتلك العبارة، لكنّه يعنيها.أنا من جعله مديراً، وأنا من يحدّد له نوع الطّعام الّذي يأكله، واللباس الّذي يلبسه. أنا من يحدّد للكثيرين في هذه المؤسّسة طقوس حياتهم. أنا الّذي لا أستطيع أن أستقيم، أنا الحلقة الأقوى في سلسلةٍ ممتدّة من فوق إلى تحت، حلقة متى استقامت تنقطع السّلسلة، فهل يعرف أولئك اللائمون لماذا لا أستطيع الإجابة؟! وهل يعرفون لماذا

أشعر بالامتعاض حين أشتري أدعية لا أطيق سماعها؟ أعرف أنّها لا تقدّم ولا تؤخّر، فما هي سوى لغوٍ وثرثرة، وهل يعرفون أنّني لست فرداً مثل أيٍّ منهم؟ أنا قطيعٌ كامل من الذّئاب، أرسل أنيابي ومخالبي في بقاع وفلوات ملأى بالطّرائد. أنصب الكمائن وأقبض على الخصوم، ما أسهل نصب الشّراك، وما أصعب الامتناع عن نصبها! ما أسهل أن يزداد أمثالي ثروةً وجاهاً!! وما أصعب أن أزداد هشاشةً وتقوّساً وحرماناً!!! ما أسهل التّوبة، وما أصعبها!! وبين السّهولة والصّعوبة تتأرجح البلاد وتتلوّى كطريدة بين الأنياب والمخالب.

المعبر

سيتقلّص العالم ذات يوم ليعود إلى هيئته الأولى، كرة صغيرة بحجم قبضة اليد، أو أكبر بقليل. كان بوسعه أن يتخيّل تلك الكرة بمقارنتها بكرة البلياردو، لولا صوت الهاتف الّذي أيقظه من شروده، نهض بتكاسل، و اقترب من الهاتف.

(ـ افتح التلفاز يا مفيد، واقرأ الخبر العاجل.)

و دون أن يردّ، تلمّس بيده الأخرى جهاز التحكم، وشغّل الشاشة المطفأة، لتتكشّف عن حرائق و دمار، و أشلاء آدميّة تتطاير. و في الأسفل برز مستطيل صغير أحمر اللّون، يظهر الخبر العاجل، ويخفي وراءه مساحة يخرج منها عشرات الرجال والنساء والأطفال، يهرعون عابرين إلى جهة أخرى.

صديقي مفيد، مدرّس التاريخ، الحالم بأن يتقلّص الكون، لتصدق تنبّؤاته بعودة الأشياء إلى أصولها. دائماً

يخذله الواقع، الانفجارات تتكاثر قاطعةً الطريق أمام أيّ تقلّص كونيّ، تذكّره دائماً بالانفجار الأوّل، حيث كان الكون صغيراً بحجم كرة البلياردو. يصارحني أحياناً بهواجسه، فأتّهمه باللّاواقعية، ويصرّ أنّه واقعيّ جداً، ونحن الحالمون دائماً بالتطوّر، دون الأخذ بعين الاعتبار أصل الأشياء.

ـ نحن في عصر الذرّة يا مفيد، عصر الواقع الملموس، فلماذا تعيدنا إلى أزمان وأحداث مشكوك في صدقيّتها.؟

ـ لا أنكر أننا في عصر الذرة، لكنك لو قرأت التاريخ جيداً، لرميت نظريّاتك الفيزيائية كلها في سلّة المهملات. هناك قوّة عظيمة أنتجت و أبدعت هذا الكون، لماذا لا تقيمون لها وزناً؟ لقد أفسدتم كل شيء، ولا بد أن تتدخّل القوّة الّتي أنتجتكم لتعيدكم إلى حقيقتكم الأولى.

دائماً أسخر من خياله، و دائماً يدهشني، أستمع إليه بإصغاء وهو يشرح حتميّة عودة الأشياء إلى حقيقتها، إلى جوهرها الأوّل. لديه رغبة بالإسهاب في الشرح، ولديّ رغبة في الإصغاء، رغبة في السفر معه إلى عوالمه الّتي أجهل تفاصيلها الصغيرة، وأراه خبيراً بهذه الأمور، لكنّ

صوت الجرس كشف لنا خبراً عاجلاً، الانفجار الكبير قرب المعبر فتح ثغرة واسعة في الجدار، و قتل عدّة جنود. نهر البشر يتدفّق كمياه سدّ انهار لتوّه.

ـ هذا انفجار آخر يا صديقي، يثبت خطأ تنبّؤاتك.

رمقني بابتسامة ساخرة تؤكّد عبثيّة الخروج عن المنطق التاريخي، ولا جدوى من الدخول في عوالم فيزيائية وكيميائية ملموسة، ومدمّرة. لا أدري أيّ منطق تاريخي يبرر هلوسات مفيد، الآن أدرك حجم الهزائم والخراب الذي تنتجه البشريّة، ومقدار السموّ والكبرياء التي يمكن أن يحملها إنسان كصديقي مفيد، الحزين دائماً، واللّامبالي دائماً. أمثاله قليلون، لكن الحياة لا تستوي دونهم. مرّة حاولتُ أن أسخر كعادتي:

ـ سأركل كرتك تلك، لتنفجر مرّة أخرى.

نظر إليّ بإشفاق:

ـ يا مسكين، لن تكون خارجها، ستكون فيها شبيهاً باللاشيء، ذرّة متناهية في الصّغر، وقد يكون رأسك في قارّة، وقدماك في قارّة أخرى. هو عالم منضغط إلى أقصى حدّ، وما تراه حولك في هذا العالم من انفجارات وخراب ما هو سوى ظواهر تنبئ باقتراب ما أعتقد حدوثه.

استغربتُ:

ـ كيف ذلك؟!

ـ قم، جهّز لنا القهوة، وسأشرح لك.

الآن أيضاً يطالبني بتجهيز القهوة، يستلقي على الأريكة مُبعداً نظره عن الشاشة الملتهبة، يحدّق إلى السقف منتظراً قهوة لن أحضرها، فأنا ضيفه، وعليه هو أن يقوم بتحضيرها.

بقيت هادئاً، أتابع المشاهد على التلفاز، بينما هو شارد في عوالمه التاريخيّة، ويبدو أنه نسي موضوع القهوة، فأراحني. ركّزت انتباهي أكثر إلى الشاشة أتابع بحماسة خبراً سنحلله كثيراً في الغد، نجتمع في المدرسة ونتناقش، نتباحث في الأسباب والحلول، وينتهي نقاشنا إلى هزيمة ترافقنا كل يوم، لتنام معنا. وحده مفيد ينقذنا من يأسٍ أدمنّاه، حين يعرض سيرة هذا الكون بكائناته كلها، ويعلن استسلامه في زمان ليس زمانه.

نجاح التفجير يحرّض الناس فيهتفون فرحين، الأطفال يرفعون قبضاتهم المضمومة بانتصار، والجنود المدجّجون يبتعدون عن النهر البشريّ المتدفّق عبر فتحة الجدار المهدّم. نظرت إلى مفيد، رأيته يغمض عينيه بهدوء، رموشه ترتعش، و كأنه يحلم. عدت إلى التلفاز،

أطفال المعبر يحتفلون غير مبالين بصديقي، و لا بكرته الكونيّة، يجتازون الجدار والمعبر إلى الطرف الآخر، حيث الماء والهواء والحرية، ينطلقون باحثين عن معبر جديد، يفجّرونه، و يسقطون مزاعم مفيد. يا الله ما أجملهم!!!

وجدت نفسي أدخل معهم، موجة في نهر بشري، هتفت مع الهاتفين، رقصت معهم، و رفعت قبضتيّ المضمومتين، بحثت مع الأطفال عن معبر آخر، حدّثتهم عن مفيد، ذاك النائم هناك على الأريكة، رحنا نراقبه عبر الشاشة، ننادي عليه و نصرخ، لكنّه غارق في هذيانه.

تجمّع الأولاد حولي، انطلقنا زمراً زمراً عبر الشاشة إلى الأريكة، كنا نشكّل كرات بشرية، تخرج من الشاشة، و تتدحرج صوب صديقي مفيد، كنا راغبين أن يحدّثنا عن توقّعاته حول نهاية الكون، حاولنا إيقاظه:

ـ أفق يا مفيد، أما آن لك أن تفيق.؟

فتح مفيد عينيه، وراح يلاحق بنظره كرات بشرية تنكمش و تصغر، تنضغط، ثم تنفجر، يغمض عينيه ويفتحهما مرات كثيرة يبتسم وهو يرامق الكرات المنضغطة تتقلّص أكثر ثم تتمدّد، تنكمش مرّة أخرى ثم تنفجر، ثم تجمع أجزاءها، وتنضغط، لتنفجر من جديد.

عالم ضيّق فسيح

لم أنتبه إلى الباب الواطئ، اصطدم رأسي بالعتبة الحديدية، ضحك الرقيب و قال:

- انتبه لرأسك.

طقطق برزمة المفاتيح، وأنهى ضحكته بابتسامة شامتة، أغلق الباب بهدوء. سمعت طقطقة المفاتيح مرّة أخرى و هي تقفل الباب، ثم تغيب، و تغيب بدورها أصوات الخطوات المبتعدة.

تلمّست جبهتي، أحسست بانتفاخ صغير ينزّ عرقاً وصديداً، رحت أستكشف المكان، سمعت كثيراً عن الزّنزانات، لكنني لم أرها. الآن أتفحّصها جيداً، النافذة المفتوحة فوق الباب تمنع طغيان العتمة، النافذة تعلو الباب قليلاً، لكنني أستطيع الوصول إليها، والنظر من خلالها. أرى مكاناً متّسعاً يجعلني أشعر بالغربة، وبكثير من

الحزن، تعلق غصّة في الحلق، أزيلها سريعاً حين أغني، أرفع يدي إلى فوق، أتلمّس برؤوس أصابعي السقف الخشن، أرامقه بعداء، و يرنو إليّ بمودّة.

عادة دأبت عليها في الأيام الأولى، أو الأسابيع أو الأشهر الأولى، لم أعد أذكر، تحوّل الزمن إلى ماضٍ بعيد، توقّف دورانه لحظة دخولي، أنظر بعداءٍ إلى كل الأشياء حولي، كنت أجلس و أسند ظهري إلى الحائط، أنفخ بغيظ، أصفع الجدران حتى تدمى يداي، ثم أهدأ ممتلئاً بالقهر.

سنوات عدّة مرّت، لا أدري عددها بدقّة، بدأت أتآلف مع هذا الصندوق الواقف، والذي كان ضيّقاً عليّ، صرت أشتهي أن ألامس السقف الخشن، ربما لم يكن خشناً، لكنّ يديّ كانتا ناعمتين. الذاكرة خوّانة، أحاول أن أتذكّر فلا أستطيع. راح المكان يتّسع مع مرور السنوات. هكذا كنت أظنّ. يأتي الرقيب و يقدّم لي صحن الطعام، يناولني إيّاه من النافذة الّتي فوق، أتناوله لأعيش. رغبة بالحياة، لا أدري سببها. يا الله... ما أكثر الأمور التي لم أعد أعلم عنها شيئاً!! هل حقّاً كان السقف خشناً، والمكان ضيّقاً؟

ثمّة أمر واحد ما زلت متيقّناً منه، هو أن الطعام كان يقدّم إليّ من النافذة التي فوق، وما زال يقدّم من النافذة ذاتها. يقولون أنّهم يقدّمون الطعام للسجين من أسفل باب الزنزانة، فلماذا يتغيّر الأمر معي؟

كنت أرى وجه الرقيب، وكان سيصبح صديقي، لكنّهم نقلوه إلى مكان آخر، ليصبح صديقاً لسجين غيري، أو ليمنعوا عنه صداقة السجناء. جاؤوا برقيب سمين، رقباء كثيرون تبدّلوا وأنا هنا، لم أعد أستطيع رؤية أحد منهم. كان وجهي يقابل وجوههم، أراهم من النافذة، فأغنّي لهم، ويشتمون، ألاطفهم، فيزيدون شتائمهم.

حين شتموا أمي وبقيّة نساء عائلتي بكيت. لا أذكر متى كان ذلك، تعوّدت على شتائمهم، صدئت أذناي، فغدت الشّتائم كالغناء. المهمّ أن أسمع همس كائنٍ بشريّ، فأفرح، أثرثر أمام الرّقيب لأسمع شتائمه، وأتباهى بأنّني مازلت أزعجهم.

أحد الرّقباء قال:

- صوتك حلو، يا بن الزّانية.

آه يا أمّي، كم أتذكّرك، وكم اشتقت إليك، دائماً يذكّرني الرّقباء بك.

يأتي الزّمان البعيد ، الموغل في البعد ، أقفز حول أمّي مثل جدْيٍ صغيرٍ مشاكس، النّهر قريب، مسيّج بسياجٍ من القصب، أهرع إليه بسكّينٍ صغيرةٍ، تصرخ أمّي محذّرةً:

(ستجرح إصبعك يا شيطان)

وكان الشّيطان يصنع من القصب مزماراً ، وينفخ، فيمتلئ المكان بموسيقى ناشزة. أتوقّف عن العزف، وأغنّي.

(يا حبيبي صوتك أحلى من صوت المزمار)

كنت يافعاً وطويلاً ، أذكر ذلك تماماً. وحين أدخلوني إلى هنا بقيت محافظاً على طول قامتي، ونحولها.

تبّاً لتلك الذاكرة، ليتها تغيب.

الصّندوق الواقف يتّسع يوماً بعد يوم، لم أعد أستطيع تناول طعامي من النّافذة. الرّقيب يرمي الصّحن ويمضي، فألتهم ما أستطيع التهامه، وأبكي. ما السّرّ في ذلك؟ لماذا يتضاءل جسمي هكذا؟ أحاول القفز لألامس السّقف، أو لأصل إلى حافّة النّافذة، كلّ ذلك دون جدوى. شيء ما جعلني أنكمش ذات يوم، وما زلت أنكمش يوماً بعد يوم.

أيعقل أنّهم يضعون لي شيئاً في الطّعام؟ أيعقل أنّهم زرقوني بحقنةٍ تجعل الجسم ينكمش؟

سمعت خطوات الرّقيب، قرّرت أن أستفسر منه عن أشياء كثيرة، صمتي يزعجه، سأسمعه صوتي، ليتني أستطيع رؤية وجهه. يرمي الصّحن من النّافذة، ويصرخ:

- أما زال صوتك حلواً يا بن ال.....

أتراجع عن قراري، لن أستفسر عن شيء، أسكت مبتلعاً غيظي، ثيابي الفضفاضة تلوّنت بالطعام المنسكب، ألعق القليل منه، وأبكي. أحاول الغناء أحياناً، فيتحوّل الغناء إلى صرير، بالكاد أسمعه، فكيف سيسمعه الرقيب؟!

يغادرني مبرباً صلواته اليوميّة.

حالتي هذه، أحاول تفسيرها، أعود إلى معلوماتي الكيميائية، فلا أجد سوى مبرّر واحد، وهو أنهم فعلوها، إمّا عن طريق الطعام، وإما بطريقة أخرى، وما أكثر طرقهم!! فالسمنة والنحول مبرّران، أما أن ينكمش الكائن الحيّ ليصير أقلّ من نصف حجمه، فهذا أمر غريب.

مشكلة أرعبتني، كنت أمنّي نفسي بقدوم اليوم الّذي أخرج فيه من زنزانتي، لأعود كما كنت، يافعاً وطويلاً. لكنني الآن لست راغباً على الإطلاق بالخروج، ولا شكّ أن المشكلة ستتفاقم، وسأزداد انكماشاً يوماً بعد يوم.

يا اللّه. لماذا لا يحضرون لي طبيباً؟!

مشكلة أخرى بدأت، ملابسي لا تناسبني بالمرّة، بنطالي أطول منّي. حين أنام ألتفّ بثيابي، فتصير فراشاً وغطاءً، ولا أشعر بالبرد، هذا شيء حسن. أما حين أنظر إلى فوق، حيث السقف والنافذة، أشعر بحزن شديد، وتعود الغصّة إلى الحلق، فلا يزيلها الغناء.

صرت أدرك فائدة أن يقدّم الطعام من تحت الباب، أمنية لن أصل إليها، لن تتحقّق، أو ربّما تتحقّق، لا أدري. حالة واحدة تحقّق لي أمنيتي، هي أن يتغيّر العالم بجميع كائناته، تنكمش الأمكنة والملابس والأبواب، تنكمش السياط، ولسان الرقيب، والرقيب...! أيعقل أن ينكمش الرقيب؟!

هناك أمور تخرج أحياناً عن منطق الأشياء، ويكون لها منطقها الخاص، فالرقيب مثلاً لا يمكن أن ينكمش. هكذا أرى، بل هو سيتمدّد دون شكّ، سيتعملق أكثر وأكثر، تزداد قبضته قوّة، وسياطه حدّة.

ما هذه الهواجس؟! لن ينكمش شيء في هذا الكون سواي، السقف سيزداد بعداً عنّي، والنافذة أيضاً ستنأى، وصحن الطعام سيندلق كل يوم فوق رأسي، صوت الرقيب الرّاعد، وخبطاته المدوّية على الباب. كل ذلك سيزداد، وأنكمش.

لم أحلم يوماً، ولم يهمّني أن تنتقل النافذة إلى تحت، سأطلب من الرقيب أن يخدمني هذه الخدمة، هل سيفعلها؟ لا شيء في هذه الدنيا أجمل من الباب المغلق ونافذته في الأسفل، نافذة تتّسع لصحن الطعام، كم سيريحني ذلك!! حينذاك سأحلم أيضاً، سأحلم أن ينكمش جسدي أكثر، أن أصير بحجم صحن الطعام، وتكون النافذة في أسفل الباب، قربي. يا لها من أمنية...!! أيعقل أن يغلقوها حين تصير في الأسفل؟ لا.لا. لن يغلقوها، بل سيغلقونها.

اقتربت خطوات الرقيب، خبط الباب وصاح:

- هل نمت جيّداً؟ أفق يا بن ال....

تراجعت إلى الوراء، استندت إلى حائط الزنزانة:

- لا... لم أنم.

- كنت تتسلّى إذاً. جهّز نفسك لأسلّيك بعد قليل.

تذكّرت السياط، وأسياخ الكهرباء، وأمي. حزنت كثيراً:

- لا. لم أكن أتسلّى.

- ماذا كنت تفعل إذاً؟

- كنت أحلم.

ـ ها.. ها. كنت تحلم!! خذ إذاً.

واندلــق صــحن الحــساء أمامــي، تلمّــست وجهــي، وملابسي، ففرحت. رأيت الصحن مقلوباً، والحساء يسيل من تحت الباب، ويخرج. أسندت رأسي إلى الحائط، رمقت النافذة بعداء، ورحت أضحك مقهوراً، وجائعاً.

هنا . . . تحت العرش

ما إن أضع رأسي على الوسادة، وتستسلم عيناي لإغفاءة أحتاجها، حتى يبدأ السرير بالاهتزاز. أفيق مذعوراً، أتلفت حولي، يهدأ السرير، ويسود سكون مخيف. لو بقيت أميراً كان أفضل، كنت مرتاحاً، وكانت الحياة جميلة، بل بالغة الجمال. لكن أبي فعلها ومات. أبي، ذلك الملك الشرقي، لم أكن أتوقّع أن يموت يوماً، كان أكبر من أن يموت، فمن أين أتاه الموت بغتة، وتركني بعده أترنّح في مملكة لا قدرة لي على حكمها، هكذا يبدو الأمر، أعتمد على معاونيّ كثيراً، بل إنني فوّضت رئيس الديوان بمعظم الأعمال الحساسة، التي تتطلب قرارات مصيرية.

دائماً أنسى شرب الماء قبل النوم، وصية أوصاني بها المرحوم، ودأبت عليها طويلاً، لكنني بتّ أنسى، كما أنسى تدليك جسدي المنهك، فعلاً أنا مرهق الآن، سهرة

الأمس كانت متعبة، شربت كثيراً، وأرهقتني تلك الحسناء كثيراً، سأستدعيها لتريح جسدي بأصابعها الناعمة، فأغفو. بكبسة زرّ تدخل، بكل بهائها، وكأنها لم تنم، تعجبني جاهزيّتها الدائمة، ولا بدّ لي من مكافأة رئيس الديوان على اختياره لها. لا تحتاج كلاماً، تفهم إشارتي، تبتسم وتقترب، يا لفطنتها، ويا لسحر أصابعها، أغمض عينيّ باستسلام، وأنسى اهتزاز السرير، فأطمئن، ثم تصلني أصوات خطواتها المبتعدة بحذر وهدوء.

لا أكاد أغفو ثانية حتى يهتزّ العرش، يسمّون السرير الملكيّ عرشاً، لا أدري لماذا، ربما لأنهم وجدوا في الملوك بعض الخصال الربّانية. أنهض، أتكئ على الوسادة، تعوّدت كثافة الصمت هذه، ولم تعد مبعث خوف أو توجّس. أتناول كوب الماء، وأشرب، أحاول إيجاد تفسير لهذه الحالة، لماذا يهتزّ العرش حين أغفو...؟ يا الله. أبي مات قبل أن يعلّمني كل الأشياء والأمور، مات فجأة، يا للظلم..! أحياناً يزورني في المنام، لكنه يبقى صامتاً، أسأله فلا يجيب، يفاجئني بعبوس غير مريح، وكأنني لا أعجبه، أو كأنه لا يثق بمقدرتي على إدارة شؤون المملكة.

كثيراً كان يردد قبل أن يموت:

ـ ستصير ملكاً يا بنيّ، بيدك مصير ملايين الناس.

أين هؤلاء الملايين..؟ لم أر أحداً سوى الخدم، والمستشارين، وكبار الموظفين، ورئيس الديوان الذي يأتيني برزم الأوراق، أضع عليها توقيعي، وأمضي إلى شؤوني. أنا أثق به، هو لن يقدر على الغدر بي، ومع ذلك سأحاول الاطلاع على القرارات والأوامر التي يأتيني بها، ربما يكمن السر فيها.

باكراً، أرسلت بطلبه، حضر وانحنى، ثم استقام مرعوباً:

ـ أمر مولاي.

هذه العبارة دائماً يرددها رئيس الديوان، تعجبني أحياناً، ترضي غرور ملك حديث العهد، وأحياناً تثير غيظي، فأصرخ، يجتمع حولي المستشارون، وكبار الموظفين، ينكّسون رؤوسهم، ويرددون العبارة ذاتها، أنظر إلى رئيس الديوان عابساً، يتلوّن وجهه، ويميل إلى الاصفرار:

ـ كيف أحوال الناس يا رئيس الديوان...؟

ـ بأحسن حال يا مولاي، يدعون لك بالبقاء والسعادة.

كـدت أبـوح بأمـر العـرش الـذي يهتـزّ كـل لـيلة، لكـنني تذكّـرت قسوة أبـي، وسطوته على هؤلاء الناس، فتراجعـت. لا يلـيق بـي أن أكـون أقـلّ حـزماً مـنه مـع المستشارين والمعاونين. اقترب مني رئيس الديوان قليلاً، ثم انحنى:

ـ أنت مرهق يا مولاي.

نظـرت إليه بـازدراء، انحنـى ثانية وتـراجع، اسـتأنف متداركاً خطأه:

ـ عفـوك يـا مـولاي. جلالـتكم مـرهق، هـل أحـضر الطبيب..؟

ـ لا. اذهب.

ينحني، ويخرج.

بالأمس، زارني أبي في المنام، كان على هيئته ذاتها، لم يـتغير، نظـراته عابـسة، صـامت كتمـثال، طـويل ومخيف، بـدا مثل مـارد، أرعبني، ركعت أمامه، ورحت أحدّق إلى حذائـه المذهّب، قهقـه عالياً، وغـاب. رجوته أن يعـود، ويتركـني أتمعّن بحذائـه. هـذا الحـذاء رأيته مراراً، لم يكـن بهـذا الجمـال، بهـذه الـضخامة، ظهـر في المـنام كعـربة مجنـزرة، أفقـت مـرعوباً. أيـن حذائـي..؟ تلفـتّ حولـي، ظهـر بـاب أبّنوسـي لكومودينة ملتصقة بالحائط،

حذائي هناك، مضيت إليه، تناولته، فارقٌ كبير بينه وبين حذاء أبي الملكي، العربة المجنزرة. اشتقت لأبي، لحذائه وعرشه، هل كان عرش أبي يهتزّ حين يغفو..؟ وهل كان أبي يغفو..؟ سأسأل أمي في الصباح، سأطلب أن تحكي لي عن حياة أبي، بكل تفاصيلها.

ـ كان أبوك يا جلالة الملك ملكاً بحقّ، حين يمشي تهتزّ الأرض تحت قدميه.

تذكّرت اهتزاز السرير، سرحت شارداً بأمور كثيرة، تنبّهت أن أمي ما زالت تحكي، ابتسمت، وتابعت الاستماع إلى حديثها.

ـ مرّة اصطحبني معه لاستقبال ملك الغرب، مررنا بين الناس المصطفين على جانبيّ الطريق، الكلّ منحنون، نظراتهم لا ترتفع عن حذاء أبيك.

عدت إلى أبي في المنام، إلى حذائه الأسطوري الضخم، بخيوطه المذهّبة، وزخارفه الملكية. فكّرت بصوت مسموع:

ـ حذاء جميل، يستحقّ أن ينظر إليه الناس.

اندهشت أمي، قطعت حديثها، ورمقتني باندهاش.

ـ أهكذا ترى الأمور يا بنيّ..؟ أتظنّ أن الناس يهمّهم جمال الحذاء..؟

ـ ماذا يهمّهم إذاً، ولماذا ينظرون إلى حذائه..؟

تركتني أتساءل، ومضت حزينة وقلقة، كنت سأصرخ بها، كيف تغادر قبل أن أسمح لها، لكنني تنبّهت أنها أمي، وأنها الملكة. طلبت من مستشار الشؤون العامة أن يجمع الناس لألتقي بهم، تردد، فهمت أنه راغب بنصحي، لكنه تراجع وانحنى.

ـ أمر مولاي.

لم أر في عمري حشوداً كهذه الحشود، إنهم ملايين من الناس، يصفّقون ويهتفون. صعدت المنبر لأخطب بهم، فوجئت بالمستشارين مكفهريّ الوجوه، يتطلّعون إلى حذائي، ويهزّون رؤوسهم غير راضين. لم أعرهم اهتماماً، تكلّمت أمام الناس بكل محبّة، ورغبة في الاختلاط بهم، تعالى الصياح والهتاف والأدعية. وكانوا حين أتوقّف عن الكلام يصفّقون، يمتلئ الفضاء بأصوات تصفيقهم وهتافهم، لكن المستشارين كانوا يصفّقون بهدوء، ومجاملة. قررت أن أعاقبهم لبلادتهم، وبرودتهم.

اجتمعت بهم مساءً، قرأت على وجوههم كلاماً كثيراً، آثرت سماعه، لا شكّ أنهم يروننني غرّاً، سأثبت لهم أنني ملك بحقّ، أجل.. غداً سأثبت ذلك. أمرتهم بالخروج، خرجوا مخذولين. جاء أبي في المنام، ولأول مرّة، بعد موته، أسمع صوته.

ـ (كيفك يا أمير..؟)

أبديت استياءً:

ـ أنا ملك يا أبي.

ـ بل ما زلت أميراً، أميراً غرّاً.

ـ كيف ذلك..؟

اهتزّ السرير، العرش. وغاب أبي.

نمت متعباً رغم اهتزاز السرير، تحوّل الأمر إلى حلم كابوسيّ، رأيت نفسي مستلقياً على السرير وقد تحرّك كعربة قديمة، حاولت النزول عنه، فلم أستطع، تحوّل المكان إلى طريق ترابيّ منحدر، السرير ينحدر مرتجفاً، وأنا أمسك به برعب، راح العرش يطقطق متسارعاً، وبدأت قوائمه تنفلت، وترتمي على جانبيّ الطريق، تحوّل العرش إلى لوح خشبيّ، يتآكل ويتفتت. أفقت، وجدت نفسي متعرّقاً، ممسكاً بقائمتيّ السرير، أتنفّس بصعوبة، حرارة رأسي ارتفعت، وبدأ صداع شديد.

حضر الطبيب، يحيط به المستشارون، ورئيس الديوان. طمأنني ونصحني بالراحة، وبالنوم باكراً، حدّقت إليه بعداء، انحنى:

ـ عفوك يا مولاي. أنا طبيبك، وواجبي يقتضي الحرص على صحّتك.

ذهب الطبيب، وبقي المستشارون. أمرتهم بالجلوس، قرأت كلاماً يزدحم على وجوههم:

ـ حبّذا يا مولاي، حين تخرج إلى الناس، ألاّ تخرج بحذائك هذا، اسمح لنا أن نوصي لك بحذاء ملكيّ.

ـ حذاء ملكيّ..؟! حسناً، افعلوا ذلك.

بدا الاطمئنان على وجوههم، تبادلوا النظرات مبتسمين، ثم استأذنوا وخرجوا. وفي المساء حملوا إليّ صندوقاً مذهّباً، انحنوا كعادتهم، ووضعوا الحذاء جانباً.

ـ الحذاء الملكي يا مولاي.

أخرجه رئيس الديوان. حين لمحته تذكّرت حذاء أبي، العربة المذهّبة، بدا حذائي القديم قربه مثل كوخ أمام قصر، ابتسمت راضياً، عبّرت لهم عن إعجابي بهم، وقلت معاتباً:

ـ كنت أنتظر منكم هذا التصرّف منذ مدّة، لماذا تأخّرتم..؟ هل عليّ أن أصرّح بكل ما أرغب به، أو أحتاجه..؟ متى ستفهمون عليّ..؟

نكسوا رؤوسهم اعترافاً بالتقصير. تجرّأ المستشار الأمنيّ:

ـ لا بدّ يا مولاي أن تخرج للناس بحذائك الملكيّ في أقرب وقت، فالناس بدؤوا يتهامسون، ويتجمّعون. ربّما يفكّرون بأشياء لا تريح.

عبست:

ـ نفكّر في ذلك.

جاء الخادم، حمل الحذاء ودخل غرفة النوم، خرج المستشارون بعدما استأذنوا. دخلت ورأيت الحذاء تحت السرير، صرخت بالخادم:

ـ لماذا تضعه تحت العرش يا غبيّ...؟

جرض بريقه، وقال متلعثماً:

ـ كنت دائماً أضع حذاء مولاي المرحوم هنا يا مولاي.

ثم سحبه ومضى إلى الباب الأبّنوسيّ، أمرته:

ـ أعده إلى هنا، ضعه كما كنت تضع حذاء المرحوم.

ـ أمر مولاي.

لأول مرة أنام بهدوء، حلمت أنني أصطحب زوجتي الملكة لاستقبال ملك الغرب وزوجته. كان الناس ناكسين رؤوسهم، يحدّقون إلى حذائي المذهّب، وكنت متباهياً بهؤلاء الناس أمام ضيوفي، هؤلاء الناس الذين لا ترتفع أنظارهم عن مستوى الحذاء الملكيّ، شعرت بأن الأرض تهتزّ تحت قدميّ، وكان ملك الغرب يراقب المشهد بإعجاب، وحسد.

التحوّل

الأصوات في المقهى تعلو وتنخفض دون أيّة ضوابط. الناس منكبّون على ألعابهم، أو منشغلون في أحاديثهم، تتواتر الأصوات بين قهقهة هنا، وصراخ هناك. النادل يغيب ويحضر، يشارك في زيادة الضجيج، وكأنه أصبح جزءاً منه. هذا الجوّ المشحون بالثرثرة، وبقرقعة النراجيل، يعجبني. أنا بحاجة لأن أرى الوجه الحيويّ للحياة بعد قضاء مدة طويلة بين صمت موجع، مليء بالذكريات الأليمة، وبين كلمات أخجل من ذكرها الآن، أتلقّاها بمرونة، وأوجّهها بحدّة.

هذا الصباح المشمس بحرارة لا تطاق يدفع الناس إلى الخروج من بيوتهم، على عكس ما يتوقّع الكثيرون. حين خرجت لم أتوقّع أن أرى هذا الحشد كلّه، ظننت أنني سأكون الوحيد في هذا المقهى، لماذا تبادر إليّ هذا الظنّ؟ لا أدري! ما أعرفه هو أن هذا الجوّ لا يضايقني، بل

يـريحني كـثيراً. الـشمس تلفـح الأشـياء جمـيعها، تنـسلّ حـرارتها إلى الأمـاكن الظليلة، فتنغلق رؤوس البشر على أفكارهـا منـشغلة بالبحث عمّا يخفّف الحرارة، أو يرسل نسمة هواء، وتتحوّل الجرائد والقبّعات إلى مراوح يدويّة.

بـالأمس تأخّـرنا في الـسهر، تقـصّدت التأخّـر وفـتحت أحاديـث لا تنتهـي، والـزملاء المـشتاقون لـرؤيتي تظاهـروا بسرورهم لمرآي. وحين تأخرّ الوقت رأيت من المناسب تنفيذ الخطّـة. فاسـتأذنت بحجّـة الـنعاس والـتعب، وقـبل أن أعـود إلى البـيت نفّـذت جـريمتي، بعـدها نمـت بهـدوء. أعـرف كـيف يقـتفون أثـر المجـرم، هـناك طـرق تقليديّة كـفحص البـصمات علـى مقـابض الأبـواب، أو الـبحث عـن أيّ أثـر تـركه المجـرم، وهـناك طـرق حديـثة لا يعـرفها سـوى المحقّقين المحنّكين أو المجرمين العتاة، مثل تحليل البول في المرحاض، أو معرفة نوع السجائر التي يدخّنها المجرم من خـلال دراسـة دقيقة لرائحة جوّ الغرفة، وقد يساعدهم ذلـك أيضاً في معـرفة الحالـة الـصحيّة لـه بإجـراء اختـبارات دقـيقة علـى عيّـنة من الهواء، فـرائحة الأنفاس تبقى في الجوّ المغلق.

كـلّ ذلـك أعـرفه، على الرغم من أنني لست مجرماً، أو لم أكـن حتـى الأمس مجـرماً. الآن اخـتلف الأمـر وصـار

ينطبق عليّ ما ينطبق على أصحاب المؤبّد أو الإعدام. لا شكّ أنّهم سيرفعون آثار التراب و الغبار عن الدرج. لم يخطر ببالي أن تلك الدرجات الستّ تحمل آثار حذائي، سيعرفون أن القاتل كان سجيناً، فغبار الأقبية ليس كغبار الشارع، هناك الرطوبة والعفونة، وهنا الشمس والهواء. هي الشمس ستفضحني إذاً، الشمس التي غابت عنّي سنوات عدة، تنتقم مني في أول يوم أراها فيه، وتشي بي إليهم. كم هو سهل الانتقام من البشر! أنا لم أجد أيّة صعوبة في أن أغرس النصل ليلة البارحة في صدر امرأة ألقت بي كل تلك السنين في قبو، ربّما أعود إليه بتهمة أخرى. لن أكون حزيناً كالمرّة السابقة، فأنا الآن لست مظلوماً، بل قاتل يستحقّ العقوبة. وإذا كانوا لا يفرّقون بين مظلوم بريء وبين مجرم قاتل، فأنا أفرّق. العدل هو العدل، ولم يكن مبرّراً أن أفعل بتلك المرأة ما فعلت، كان عليّ أن أعفو. أحقّاً ذلك؟! هل كان عليّ أن أعفو؟!

لست محتاجاً إلى تنشيط ذاكرتي، فهي حتى الآن حيّة. أستعيد أيام (القاووش) علّني أجد مبرّراً لجريمتي. بصفعة واحدة تحوّلتُ إلى عامل تنظيفات، سنوات عدّة وأنا أنظّف المراحيض، وأكنس الأوساخ، أجهّز الشاي للزعيم ومعاونيه، فأنا لا أتحمّل صفعة أخرى. كنت غضّاً، ولم تنفع فترة السجن للتخلّص من غضوضتي،

وكـان الـزعيم صـخرة قاسـية علـى هيـئة رجـل، فـلا أنـا قـسوت، ولا هـو لان. كـان يطلـب منّـي أحـياناً أن أغنّـي، وحـين أحـرن يهدّدنـي بـأن يعيدنـي إلى .... أمـي، فأمتـثل، أغنّـي فيضحك الجميع وأخجل، وكنت حين أنزوي بعيداً عنهم أبكـي.

أحـد نـزلاء القـاووش أشـفق علـيّ، حـاول أن يعلّمـني التمـرّد، فلـم أتعلّم. كـان يدافـع عنيّ أحياناً فيتقاسم معي صفعات ولكمـات كـثيرة، ورفسـات أكـثر. لكنه يتمرّد بعدهـا، وأذعـن. حالـة خضوع رافقتني أعـواماً كثيرة حتى بتّ أدمنها، الآن سـأتخلّص منها، لا بدّ من ذلك، فلا يليق بـي أن أبقـى جـباناً بعـدما التـصق الـسجن باسمـي، وصـار يميّزنـي كمـا تميّزنـي بقـيّة الـنعوت. الخـوف، الحـذر، الحـيطة الدائمـة، أمـور لا تتاسـب خـرّيج سـجون، وإذا شـكّلت ميراثـاً فلـن أكون ناقلاً لهذا الميراث، بدأ عندي، وسـينتهي عـندي، سـأضـع لـه حـدّاً قاطعـاً، بـالأمس بـدأت طـريقاً جديـدة، وسـأكملها. أجـل سـأكملها. قـد يأتـي رجـال الـدّرك بعـد قليل، يحاولـون سـحبي كمـا سـحبوني تلـك الظهـيرة مـن الجامعـة، عـرفت حيـنذاك أنهـا نفّـذت تهديـدها، الجامعـة كانـت حلمـاً، فـتحقق، ثـم عـادت لتصبح حلمـاً آخـر يستحيل تحقيقه. تلك المـرأة، أعـود إلى خـيالها الآن، أعـرف أنهـا تـستطيع فعـل الكـثير، زوجهـا

صاحب شأن وسطوة، هما قلّما يجتمعان، يسافر ويتركها وحيدة تتلظّى، لم تمانع ساعة اختلينا في بيتها الجبليّ، بل هي من بادرت، تعرّت أمامي، فاندلقت الرغبة فجأة مثل سدّ صغير ينهار، غمزتني مشيرة إلى السرير، فتبعتها. كان الفصل صيفاً، وكنّا مستمتعين بانهيار جدران السدّ، وفيضان الشهوة، رحنا نتناغم حتى انتشينا. تكرّر ذلك التعرّي وذاك التناغم مرّات عدّة، وفي كل مرّة تؤكّد لي بأنني زوجها الحقيقي:

ـ لي زوج واحد هو أنت. زوجي وحبيبي وعشيقي.

ـ أرجوك ...

ـ لا تتكلّم. هو ليس زوجي، هو زوج من ورق وحبر وأختام، وأنت كائن آخر، يجيئني طيفك كل يوم، كم أحتاجك، وكم أشتهيك!!

كم احتقرت نفسي وأنا أرى انهيار السدود، خفت أن تغرقني بما لا أستطيع منه الخلاص، رجوتها أن ننهي علاقتنا، كنت خائفاً من زوجها أكثر من احتقاري لنفسي. انقطعت عن زيارتها، فجاءت إليّ، وهددتني. لم أصدّق يومذاك تهديدها، لكنها نفّذت. أنا أيضاً هددتها، ونفّذت بفارق واحد هو المدّة الفاصلة بين التهديد والتنفيذ.

حين سألني الزعيم عن سبب قدومي شرحت كل شيء، كنت صادقاً، بل كنت غرّاً غبيّاً، وربّما ما زلت كذلك. ضحك الزعيم وقال:

ـ أنت ذكر إذاً.

ضحك الجميع ساخرين، فانزويت بعيداً. أشياء كثيرة كنت أخشاها في القاووش، خشيت أن يطالبني الزعيم بإثبات ذكورتي، وما أكثر الإناث هناك!! يكفي أن يشير إلى أيّ سجين ويطالبه بالتعرّي ليتعرّى، وربّما يذهب أبعد من ذلك. يا ألله.. كم كنت أخاف!!!

بالأمس فقط جمعتُ ميراثي من الخوف وألقيته في حاوية بعيدة، دخلت بيتها الجبليّ بهدوء، كانت نائمة شبه عارية، رأيتها وتذكّرت الجُدُر التي انهارت وفاض ماؤها علينا. مزيج من الخوف والحقد والاشتهاء جعلني أُدخل النصل في صدرها، فتحت عينيها الرماديّتين وتأوّهت، بصقت في وجهها، حدّقت إليها بتحدّ لأذكّرها بوعيدي. خرجت بهدوء، هبطت الدرجات ببطء وثقة، بأعصاب باردة كما هي الآن. سأكمل قراري الشجاع، وأنفض ما بقي من آثار الميراث حين يأتي رجال الدّرك. أنا من سيجعلهم يأتون، وقد يجبرونني على الصراع معهم، لأنني لن أهرب، ليس ابن الترك من يهرب بعد الآن. أنا

همام الترك الذي كان عامل تنظيفات في القاووش. والذي لا يرى مانعاً من العودة إليه، ولكن بطريقة أخرى. سأثبت ذلك. عليّ أن أثبت لنفسي أولاً أنني بدأت الطريق الجديدة، سأثبت أنني جدير بأن أكون زعيماً، سأبدأ الآن. تلك الطاولة البعيدة، حولها رجلان يتحاوران، رجلان شديدا القوّة، هكذا يبدوان، وأنا لست سهلاً، ولن أكون سهلاً بعد الآن. روّاد المقهى جميعهم سيشهدون أن همام الترك قادر على كسر أكبر رأس في هذه المدينة.

الكراسي الفارغة قليلة، سيزداد عددها بعد قليل، كأنّني أرى هذا الجمع يتناثر، يهرع هارباً نحو الشّارع، سينجو بنفسه، لأنّ بحثي عن ضحيّةٍ لن يطول، بل أنا وجدتها. أخرجت سكّيناً من جيبي، فتحتهُ ورحت أضرب بنصله فوق وجه الطّاولة، الضّربات تزداد وتشتدّ، العيون بدأت تنظر صوبي، رسمت عبوساً مخيفاً بين حاجبيّ، النّاس مستغربون، ينظرون إليّ ببلاهة، العيون جميعها رماديّة، أرى أصحابها نائمين على أسرّة وثيرة، أبعدت الدّرجات من أمامي، درجات البيت الجبلي، وقفت، وراح النّاس ينسلّون. الكراسي الفارغة تزداد، كثيرٌ منها سوف يتكسّر بعد قليل، لن أنتظر وصول رجال الدّرك، النّادل انزوى في زاوية وراء الحاجز، اجتمع حوله زملاؤه يراقبون، كأنّهم ينتظرون بداية فيلم سينمائي مشوّق.

نظـري لا يحـيد عـن تلـك الطّاولـة، تقـدّمت بـين الطّـاولات قاذفاً بالكـراسي عن طريقي.

هيّا يا بن التّرك، يا رجلاً لزمانٍ قلّ فيه الرّجال. هيّا، فالقـاووش وزعـيمه ينتظـرانك، الزّعيم الّذي ستجعله عامل تنظيفات. هـيّا. هـيّا يـا همـام، هـيّا. فلن ترضى بعد الآن أن تدخل قاووشاً لا تصير سيّده.

لها. . . . لهم

السّيل

دائماً يتوقّع العجائز ما لم يخطر ببال أحد، ننظر إلى عيونهم فتبدو لنا منطفئة البريق، هكذا نراها، لكنّها تختزن صوراً ومشاهد مذهلة، لا يصدّق أبناء جيلنا بأنّ لديها ثروة من المعرفة جعلتها ترى ما لا يراه الكثيرون. أبو العبد يحدّق إلى السّماء فيظهر القلق على وجهه، يهزّ رأسه ويتمتم بكلامٍ مسموع :

-أجارنا اللّه من الأيّام القادمة.

ينهض صديقه الأعرج بعدما يخبط بكفّه على ركبته، يسأله باهتمام:

-ماذا تتوقّع يا أبا العبد؟

يتردّد أبو العبد بين الإفصاح عمّا يراه آتياً لا ريب، وبين سكوتٍ يراه نوعاً من التّخاذل، فواجبه يقتضي أن يصرّح:

ـ السّيل يا أعرج. السّيل.

يبحلق الأعرج في وجه أبي العبد، ثمّ يعبس ويشرد. هواجس مرعبة تغتال صفاء الأعرج. هو يعرف السّيل جيّداً، له معه حكاياتٌ لا تُنسى. يحار بين إظهار خوفه وعدم اكتراثه، سيسخرون منه إن شعروا بخوفه، كيف سيهرب من ذلك. حتّى الخوف بدأت ملامحه تظهر على وجهه، لكنّه لا يعدم وسيلةً في إظهار غضبه بطريقة تبعد ملامح الخوف ولذعة السّخرية:

ـ ألا تستحي يا رجل؟! دائماً تناديني بالأعرج. أنا لي اسمٌ يا أبا العبد، أم تراك نسيت؟

يضحك أبو العبد باستهزاء، ويشاركه الأصحاب ابتسامته:

ـ لا. لم أنسَ. لكنّ لقبك يناسبك أكثر.

يجيب الأعرج باستسلام:

ـ لا أماتني اللّه قبل أن أراك مثلي.

ينبري عجوزٌ ثالثٌ باهتمام:

ـ (خلّصونا من تفاهاتكم).

ويلتفت إلى أبي العبد:

ـ أحقّاً ما تقوله يا أبا العبد؟

يعود أبو العبد ليمسح بنظره أفقاً صافياً:

ـ يعلم الله أنّه قريب، وليس أمامنا إلاّ أن نحتاط. نبّهوا أولادكم يا إخوان، ولنلزم بيوتنا في اليومين القادمين. ذلك أضمن.

يصمت الجميع، يلوكون هموماً باغتهم بها أبو العبد. الأعرج يدقّ عصاه على الأرض عدّة دقّات، ينظر إلى الصّفاء المراوغ، يلمح بواكير غيومٍ تتراكض شرقاً، وتطرّز بتشتّتها سماء صافية:

ـ من أين السّيل يا رجل؟ ألا ترى السّماء ما أصفاها؟!!

عيون كثيرة تبحلق إلى السّماء، تحدّق بارتياب، ففي تاريخ أصحابها تجارب تجعلهم محقّين بارتيابهم وخوفهم. ينهض أبو العبد، ينتقل عدّة خطواتٍ، يضع كفّه أمام عينيه، ويحدّق، والجميع ينتظرون أن يغيّر توقّعاته، في دواخلهم أملٌ بأن يكون مخطئاً، يترقّبون ويراقبون، عيونهم لا تحيد عن وجهه وحركة يديه. ينبري الأعرج:

ـ ماذا رأيت يا أبا العبد؟

يبتسم أبو العبد، ويجيب بهدوء:

ـ والله يا أعرج، عليك أن تدير بالك جيّداً، فالسّيل يصطادك بسهولة.

يصرخ الأعرج بغضب:

ـ سيل يأخذك إن شاء الله.

يتركهم الأعرج ويمضي بتوتّر قلق. عصاه تضرب الأرض بقوّة، يشدّ معطفه جيّداً، ويغذّ السّير باتّجاه داره.

لم تعد التّلّة تتّسع للبيوت، فتناثر عددٌ منها في الأسفل، وامتدّ بعضها الآخر بعيداً على جانبيّ الطّريق الإسفلتي الموصل إلى المدينة. لم يتوقّع أحد أن تجري السّيول في هذه المنطقة، فهي بالكاد تشمّ رائحة المطر، منطقة مسوّرة بالصّحراء من جهاتها الأربع، اعتاد الأهالي العيش في الصّحراء، وربّما فاخر بعضهم أبناء المدن بأصالته وعراقته، معظم عظماء الأمّة خرجوا من الصّحراء، وما أهل الصّحراء الآن سوى أحفاد لأولئك العظماء. أمّا أهل المدينة فأمرهم مختلف، لا يحقّ لهم التّباهي بالانتماء لأمّة مجيدة. الصّحراويّون آخر همّهم أن يحتاطوا من الأمطار والعواصف، فكيف يفكّرون بسيولٍ لم يروها في حياتهم؟! لذلك ينظرون إلى كلام أبي العبد فيرونه نوعاً من الهذر أو الخرف، فقط أصحابه العجزة يأخذونه على محمل الجدّ، فهم يعرفونه جيّداً، ويعرفون أنّ نظراته قلّما تخيب.

الأعرج يجلس أمام بيته، يحيط به أهله وأقرباؤه جميعاً، يشرح لهم باعتزاز:

ـ أترون هذه السّهول الممتدّة؟ رأيتها مرّةً كالبحر، بل كانت بحراً حقيقيّاً، الماء على مدّ النّظر، حمانا هذا التّلّ

من موتٍ محتّم، مات الكثير من النّاس، ونفقت ماشيةٌ كثيرة، وعلى مدى يومين كاملين بقي النّاس محجوزين في بيوتهم. جلّ ما أخشاه أن يكون أبو العبد صادقاً في تنبّؤاته. ولكن ليس أمامنا إلاّ أن نحتاط لكارثة وشيكة الوقوع. أنتم لا تعرفون أبا العبد، أنا أعرفه، هو لا يلقي كلامه جزافاً.

أبو العبد ليس معنيّاً بالإجابة عن أسئلةٍ واستفساراتٍ كثيرة، تدور حول مصدر معرفته وصدق تنبّؤاته، فالله تعالى يعطي المرء على قدر ما يستحقّ، والمعرفة لا تأتي إلاّ من صفاء النّيّة، وطيبة القلب، ولا أحد في هذه البلدة إلاّ شاهدٌ على فضائل الرّجل ونبل أخلاقه. وعلى الرّغم من أنّ بعض النّاس المشكّكين لم يكترثوا للأمر، بل عدّوه خرفاً، لكنّهم احتفظوا في سرائرهم بشيءٍ من الخشية، لم ينفوا الاحتمالات كلّها، فاكتفوا بحذرٍ غير مبرّر.

نام النّاس تلك الليلة باكراً، كثيرٌ من الرّجال التقوا بنسائهم مغتنمين ما يستطيعون من متعة في ليلةٍ قد تكون الأخيرة من أعمارهم.

صباحاً، بدت النّساء كالدّجاجات، كثيرات النّشاط والحركة. والرّجال مثل ثيران منهكة، بالكاد يجرّون أجسادهم لمساعدة النّساء في جمع الأشياء

الضّروريّة، وإدخالها إلى البيوت، وخاصّةً أنّ السّماء بدأت ترعد، ووجهها راح يتجهّم بقسوةٍ غير معتادة. تنبّؤات أبي العبد صدقت، ولم يعد بالإمكان تكذيبها، ولا عدّها هذياناً عجائزيّاً، بل لا بدّ للنّاس من شكره، وعدم الشّكّ إطلاقاً بكلامه بعد الآن.

مع بدء الأمطار صعد معظم النّاس إلى التّلّة، وأصحاب البيوت المتناثرة في السّهل حلّوا ضيوفاً عند جيرانهم وأقاربهم، حتّى صارت البيوت كأوكار النّمل، راحت الأحاديث تتنوّع بين مزاحٍ ثقيل يزيح كرباً حلّ فجأة على أهل البلدة، سخرية وعتب، وحديث طويل عن طبيعة الطّوفان المرتقب، ومدّة بقائه، النّاس يقدّرون أنّ الوصف الّذي سمعوه من العجزة لا يليق بسيل، هو أشبه بصورة طوفان، وكان أبو العبد سيّد من يجيب، لا أحد يجرؤ على الإجابة سواه، نفش ريشه كأكبر الدّيوك، وراح ينثر مواعظه ونصائحه وملاحظاته. بادره الأعرج:

ـ والله صدق ظنّك يا أبا العبد.

وراح يتطلّع عبر النّافذة الغربيّة (يا لطيف تلطف). لكز أحد الشّبّان أبا العبد في خاصرته مشيراً إلى الأعرج، وغامزاً بطرف عينه بإشارة ذات معنى. يبتسم أبو العبد ويهمس للشّاب أن يسكت، لكنّ الشّاب بدا مصرّاً على استفزاز الأعرج:

ـ كيفك يا أعرج؟ هل فكّرت ماذا ستفعل إذا وصل الماء إلى أعلى التّلّة. أو دخل البيوت؟ هل تستطيع أن تصمد أو تقاوم؟

يهزّ الأعرج رأسه، يتنحنح مصدراً صوتاً ساخراً، ويحدّق إلى الشّاب:

ـ أين أبوك يا ولد؟

ـ ماذا تريد منه؟ هو في البيت.

ـ اذهب وأحضره إليّ، أنا بحاجة إليه.

يتدخّل أبو العبد متوجّهاً إلى الشّاب بعتب وتحذير:

ـ أنت لست قدّ الأعرج وكلامه. فاسلم برأسك، واسكت.

يعبس الأعرج في وجه أبي العبد طالباً عدم التّدخّل:

ـ اتركه يا أبا العبد، اتركه.

ويتطلّع إلى الشّاب من جديد:

ـ قم يا ولد. رح أحضر أباك، هيّا. قل له إنّ عمّي الأعرج يريدك.

ـ لم تقل لي، بأيّ أمرٍ تريده؟

يجيب الأعرج بهدوء وبتهكّمٍ حادّ:

ـ أنت تعرف يا بنيّ أنّني أعرج، وإذا دفق الماء ووصل إلى هنا لا أستطيع أن أقاوم، ولا بدّ لي عندئذٍ من الرّكوب على أبيك، وإنقاذ نفسي.

تتعالى الضّحكات، وتنتشر العبارات اللاذعة دون قيد، يُحرج الشّاب، ويربت أبو العبد على كتفه:

ـ نصحتك أن تتحاشاه فلم تنتصح.

تضبّب الأفق الغربيّ، وكأنّ السّماء اقتربت كثيراً من الأرض، اشتدّت الرّيح، وضعفت القدرة على الرّؤية. الأجساد تتجمّع خلف النّوافذ، والعيون تترقّب أمراً موشك الحدوث. هي رغبةٌ في استقدام المشهد، كثيرون لم يروه في حياتهم، يدفعهم الفضول إلى الدّعاء والابتهال لأن يكون سيلاً حقيقيّاً يعادل ما يختزنه الذّهن من صور، أو يزيد. منذ الأمس والنّاس يتخيّلون، ويخطّطون لمواجهته، وربّما كلّ واحدٍ راح يرسم خطّةً منفردة، ليبرهن لجيرانه أنّه الأقوى والأذكى. القلوب البردانة حملت الحبّ والامتنان لأبي العبد وقد بدا كملكٍ وسط حاشيته.

يُقرع الباب ويدخل رجلٌ صارع الأمطار والرّيح، يزيح كوفيّته الملتفّة بعنايةٍ حول أذنيه وأسفل وجهه، يلقي التّحيّة وهو يرتجف، يوسعون له مكاناً قريباً من المدفأة، يجلس، يوحوح، ثمّ يهدأ:

ـ اللّه يعيننا.

الأعـرج ازدادت جـرأته بعـدما أحـرج الـشّاب، رمـق الرّجل بنظرةٍ حادّة:

ـ أما كفاك الليل يا حمزة؟

يفـرك حمـزة يديـه، يستطلع وجوه الحاضرين، يبتسم محدّقاً إلى الأعرج:

ـ اللّه يعين من عنده زوجة ولا يقدر عليها.

تـزداد الـضّحكات، تخطـر لـيلة أمـس في أذهـان الـرّجال والنّـساء، فتـتعالى العـبارات اللاذعـة وسـط هـرجٍ ومرج، يهطل الضّجيج على رأس الأعرج مثل حصىً يقذفها أولادٌ مشاغبون، فيبتسم ويجيب باعتزاز:

ـ روحوا اسألوها.

ويتلفّت حوله:

ـ أين أنت يا زلفا؟

تخجـل زلفـا، وتـنكس رأسـها منطويةً بـين زمـيلاتها. تبـتلع النّـساء الـضّحكات، وتـتقارب رؤوسـهنّ، يتوشوشـن بكـلامٍ أكـثر تهذيباً مـن كـلام الرّجال، وقد يعلو صوت إحداهنّ شـاتماً الـرّجال كلّهم منذ عهد سيّدنا آدم، فتعلو أيضاً أصوات الـرّجال مؤنّبةً ومـستفزّة. يتواتـر صفير الرّيح

فيهدأ الجميع، يتقدّم أبو العبد من النّافذة الغربيّة، يتأمّل بحذر:

ـ بقي من أعماركم ساعاتٌ قليلة، فلتغتنموها بما تشاؤون، ستنجرفون قريباً كالخراف الضّالة.

يجيب الأعرج:

ـ فال اللّه ولا فالك يا شيخ.

ـ هذا ليس فالاً يا أعرج. انظر الأفق جيّداً ترَ ما لا يريحك.

تتكوّم الأجساد، وتحدّق العيون عبر النّافذة، تتّحد مسارات النّظر فتغدو باقةً غير مرئية، حزمة أشعّةٍ متوسّلةٍ إلى اللّه خالق السّماوات والأرض، ومرسل المطر والغيم، ومجري الماء طوفاناً. تتوسّل أن يرحم هذه الكائنات الضّعيفة والمرعوبة، وترجو أن تمرَّ الأمور على خير، وأن تتكرّر الليالي كليلة الأمس، دافئة، قلقة، حائرةٌ ومتوتّرة.

معظم النّوافذ الغربيّة لبيوت البلدة تخلّعت، دخلت الرّيح لتعبث بالنّاس وبالأشياء، وتتجوّل بين الحجرات لتصطفق الأبواب، وتتخلخل بدورها. تزداد الابتهالات، ويشرع الأهالي في محاولةٍ عبثيّة لإصلاح ما تداعى، وبردّ فعلٍ دفاعيّ أمام ريحٍ هائجة. النّسوة في الزّاوية الأخرى

يولولن مرعوبات، وكأنّهنّ تتبارين في مسابقةٍ لأجمل صرخة، أو لأطول زعيق. ينهمك الجميع بعشوائيّة، وتعمّ البيوت فوضى لا سابق لها. أصحاب البيوت السّهليّة عند أسفل التّل يفكّرون بما آلت إليه الحال في بيوتهم المهجورة، وكيف ستصيرُ بعد هجوم الماء الموحل. المياه الهائجة بهجومها الكاسح، والمتدفّق بالرّمال والوحول، تتحوّلّ لدى هؤلاء النّاس إلى كارثة. الحلم بالمطر يصير كابوساً سيلّيّاً لا يعلم نتائجه إلاّ الله.

ثغاء الخراف يتعالى في الزّرائب القريبة، بعض الأكباش تجرّب شجاعتها، تخرج من الأبواب المخلّعة، تتصدّى القرون للرّيح في مواجهةٍ غبيّة. وقد تبتعد الأكباش كثيراً، ثمّ تعجز عن العودة، فتأخذها الرّيح في مساراتٍ مجهولة، تنقلب وتتدحرج صوب السّهل، ترتفع قوائمها بتضرّعٍ قبل أن تنغمس في الطّين. الرّيح بدأت هبوبها منذ أكثر من ساعة، حاملةً معها أمطاراً غزيرة فاجأت كلّ الكائنات. وجاء دور الوحش البنّي ذي الجسد المائيّ هاجماً من جهة الغرب ليسطو على المساحة الممتدّة بعيداً، حيث تعجز الرّؤية عن تحديدها.

بعض الرّجال خرجوا أيضاً يتفقّدون دوابّهم وأبواب بيوتهم، ولم يعودوا، ربّما رافقوا الأكباش الّتي فتحت

بـاب الجـرأة للخـروج والاكـتـشاف في رحلـتها الأخـيرة، أو أنّهـم التـجؤوا إلى بيوتٍ أخرى. زلفا رغبت بالخروج، عبّرت عـن قلقهـا على قطيع النّعاج، لـكـنّ الأعرج صرخ في وجهها مـتّهماً إيّاهـا بالجـنون. حمـزة لم يـستمع لنـصيحة أحـد، وخاصّـةً بعـد الحـرج الّـذي أصـابه من الأعرج، ترك الجميع ومضى مسرعاً، ولا أحد يعلم هل وصل إلى بيته أم لا.

صـاحبة البيت فاجأت الجميع بأباريق الشّاي ، فنالت استحـسانهم وشـكـرهم. وزوجهـا لم يعـد يـستطيع حمـل الثّـناءات الّـتي انهالـت عليه، فأنـسته خـوفه، وراح يـرحّب بالجميع ضيوفاً أعزّاء. سريعاً أُفرغت الأباريق والكؤوس، تـدفّأت الـبطون، وعـادت الألـوان الطّبيعـيّة إلى الوجـوه الشّاحبة. سـاد صمتٌ قصير، هدأت بعده الرّيح، وانشغلت الأذهـان بالتّفكـير بطـرقٍ أجدى لإغلاق النّوافذ والأبواب، وتحـصينها في هـذه الهدنـة. أُصلحت النّافذة الغربيّة، وأُعيد تثبـيتُ إطارها الخشبيّ قبل أن تصل الآذان أصواتٌ غريبة، كـأنّهـا فحـيح أفـاعٍ. اسـتغرب النّاسُ والتفتوا إلى أبي العبد الّذي انتصب في الوسط:

ـ هـو السّيل يـا أخوان، هذا صوته. يا اللّه... منذ زمانٍ لم أسمـع هـذا الـصّوت. خـلال دقائـق قلـيلة تظهـر بـوادره. راقبوا جيّداً الأفق الغربيّ، وانتظروا.

في الصّباح التّالي، انشغل النّاسُ بترتيب حياتهم من جديد. الحزن طاغٍ، شديد التّوغّل، أصاب النّاس حتّى النّخاع. كثيرٌ من الشّباب ماتوا، قتلهم تهوّرهم، واستعراض شجاعتهم. الأعراس الرّبيعيّة تأجّلت إلى موسمٍ آخر، والصّبايا يؤرجحهنّ الحزن بين فقدان الأحبّة واليأس من تعويض رعشات القلوب الّتي هدأت مستكينةً على قهر. لم يعد أمامهنّ مجالٌ للتدلُّل، أُزيلت الشّروط والقيود من أمام الخاطبين، فالدّنيا لا تستأهل شيئاً، والموتُ يترصّد كلّ ربيع ما يقع في طريقه، لا أمان بعد الآن. أجل، لا أمان.

الأعرج صار ينطق بالحكمة بعد وفاة زلفا الّتي غافلته وخرجت لتفقّد نعجاتها. ازداد عرجه، وتقوّس ظهره أكثر، فأصبح السّير أصعب، تضاعفت مهمّة العكّازة، وغدت صديقته لما تبقّى له في هذه الدّنيا من أيّام، قد تقصر وقد تطول، لكنّه على يقين من أنّه لن يرى السّيل ثانيةً.

أبو العبد يتأمّل المساحة المائيّة الدّاكنة، بدا عاتباً على قدرٍ يضع هؤلاء النّاس الطّيّبين في منطقةٍ لم تعد آمنة، وفكّر جدّيّاً بالرّحيل إلى منطقةٍ أخرى منطقةٍ جبليّة لا يهدّدها الماء، بل يصيرُ هناك نعمةً يفرح النّاس بها،

الجبال عصيّةٌ على سطوة الماء، تسحب قوّة السّيول عبر الأنهار، والأشجارُ هناك تصدّ الرّيح الهائجة:

ـ الجبال يا إخوان. الجبال هي ملاذنا الوحيد.

أقواس ملائكية

أمي تنظر إلى السماء، وتتمتم بخشوع، أشاركها النّظر، وأسألها، تحضنني بمودّة، وتقول إن تلك الأقواس أطياف ملائكيّة، ترسلها قوى السماء لتمرّ فوق النّاس كل عام، فتغسل ما في النفوس من غلٍّ و ضغينة، فتصفو النّفوس بعد غسلها، ويسود الوئام كلّ القلوب و العقول.

ما زلت أذكر أحاديث أمّي، ابتهالاتها، صفاء وجهها، وحزن عينيها، كنت أرى السماء حقلاً ممتلئاً بالأقواس القزحيّة، تلفّ الجبال المحيطة عابرة فوق البلاد من جميع أطرافها، وكان وجه أمي يزداد طيباً، وعيناها تزدادان صفاءً و حزنا.

ـ محظوظ يا ولدي من تعبر تلك الأقواس فوقه، أو يمرّ تحتها.

وتتابع صلواتها بهمس و خشوع.

أجلس قربها، أتّكئ على حضنها الدّافئ، وأسرح في السماء الملوّنة، أرى الملائكة أزواجاً أزواجاً، يمسكون بالأقواس من أطرافها، ويمرّرونها فوق الناس الخاشعين.

أمي أورثتني تخيّلاتها و رؤاها، فلا أصدّق كلّ ما يقال الآن عن أسباب تشكّل تلك الانحناءات اللونيّة، أشرح لأطفالي أسباب تشكّلها، كما كانت أمي تشرح لي، فيفور حضنها عوالم مدهشة، وتطير من عينيها أجنحة كثيرة ملونة.

يرمقني أولادي باستسلام، ويتهرّبون من نظراتي اللائمة، أجد لهم ما يبرّر تصرّفاتهم، فمع موت أمي ماتت دنيا كاملة من الصّفاء والطيب و التّقوى، لم أرث ما يكفي لغسل هذه الرّؤوس الضاجّة بعوالم صاخبة، نهمة، منطلقة بشكل فظيع، دون تروٍّ.

لم أقل للأولاد كل ما كان يروى حول سرّ تلك الظاهرة الضوئيّة، فقط نقلت لهم نظرة عامّة كانت سائدة في زمان قديم، لأنني أدرك تماماً ما يجول بخواطر أبناء هذا الجيل، يجاملونني أحياناً، أعرف ذلك فاحزن. ليتهم يصدّقون ما كنت أصدّقه، ويرون ما كنت أراه.

أتمنّى أن يهرعوا إلى أمّهم، ويتّكئوا على حضنها، ويسرحوا، كما كنت أفعل، لكنّ ذلك لن يحصل، فلا هم مثلي، ولا أمهم مثل أمي.

يا اللّه كم تغيّر العالم!!!.

زوجتي تخرج ورائي إلى الشّرفة، أتملّى وجها الطّافح بالمساحيق، وأتذكر وجه أمي الذي قشّرته الشمس، وصبغته بسمرة ريفيّة آسرة، تضع زوجتي صينيّة القهوة و تجلس قبالتي، نتحادث، أستمع إليها بحياد ماسحاً بنظري ألوان وجهها، وذراعيها العاريتين، تنبت أقواس كثيرة في الأفق الشرقيّ، أحدّق إليها و أتمتم، أعيد نظري إلى عينيّ زوجتي بابتسام، أنقل النظر بين الوجه و السماء، تفهم نظراتي، فتسخر:

ـ تصوّر يا أبا عامر أنّ أهل تلك القرى الشّرقيّة يتحوّلون الآن، يتبادلون الأدوار.

أتذكّر جارتنا القديمة الّتي رغبت أن تصير رجلاً، فراحت تتضرّع إلى الأقواس لأن تمرّ فوقها، سخرت منها أمي، لكنّ الجارة أقسمت أنّ كل من يمرّ القوس فوقه يتغيّر جنسه، الرّجل يصير امرأةً، والمرأة تصير رجلاً.

منذ أيّام حكيت تلك الحكاية لزوجتي، وها هي الآن تثبت أنّها أمٌّ مناسبةٌ تماماً لعامر.

أنهينا القهوة، مدّت يدها تمسح شعري المشرّب بالبياض:

ـ عامر اتّصل منذ قليل، و يريد نقوداً.

غاب طيف أمّي، و في الأفق الشّرقيّ راحت الألوان تتلاشى، رمقت زوجتي بحدّة:

- ابنك مسرف.

تنهّدت بشوق، حملت صينيّة القهوة لتعيدها، لم أتابعها، وإنّما جعلت أفتّش عن بقايا الأقواس الملوّنة، وصلت الزّوجة إلى المطبخ، ووصلتني أصوات زجاج يتكسّر. تجاهلت تلك الأصوات، و أبعدت عامر و أمّه، والطّلبات الّتي لا تنتهي، تذكّرت جارتنا القديمة، ابتسمت بصفاء. وحيداً فوق شرفةٍ مشرعةٍ للأفق الشّرقيّ، عادت الأقواس تنبت من جديد، وعاد خيال جارتنا، ورغبتها بتغيير جنسها، ازدادت الأقواس القزحيّة، وراحت تترامح متقاطعةً بانتظامٍ مدهش، وعابرةً جميع القرى والبلدات.

أغمضت عينيّ على عالمٍ رماديّ، ممتلئٍ بكائنات مختلفة، نساء بشوارب و لحىً، رجال بضفائر طويلة مجدولة، وصدور ناهدة. اكتأبت، رأيت عامر يجدل ضفائره، ويصبغ وجنتيه، يضع حمّالة النّهود ويثبّتها، ينظر في المرآة ليطمئنّ إلى جاذبيّته.

فركت صدغيّ، أسندت رأسي على راحتيّ محاولاً إبعاد تلك الأخيلة، كرهت جارتنا القديمة و أقواسها

الكاذبة، وعدت إلى أمّي و أحاديثها الآسرة صنعت فضاءً واسعاً عبقاً، زرعت فيه أقواساً كثيرةً، و رحت أمرّرها فوق البيوت والشوارع والسّاحات، راح النّاس يهرعون ويختبئون. تجهّم وجه أمّي ورمقتني بعتب، تأسّفت لها فتوقّفت الأقواس، ثمّ ابتعدت، و غابت.

عامر يريد نقوداً.

اعذريني يا أمي، أنا مجبر أن أبعد حكايات ورثتها عنك، لماذا تلومينني؟ حفيدك الغائب وراء البحار يحتاج النقود، لن تنفعه الحكايات الدافئة، أصبح الناس يغيّرون أجناسهم بأيديهم. لا بأقواس السماء الملائكية.

ابتسمت أمي بشفقة، وغابت دون وداع. وصلني صوت زوجتي:

- ألن ترسل نقوداً لعامر..؟

صرخت:

- أما آن له أن ينهي دراسته، ويريحنا؟

- اقترب الفرج يا أبا عامر، شهور قليلة فقط، ويعود طبيباً يرفع الرأس.

اشتقت إليه، ذلك العامر المشاكس العنيد، يا الله كم أحبه!!! وكم سيصير العالم جميلاً!!! لحظات من النشوة شملتني وأنا أتخيّل الدكتور عامر يعود إليّ،

سـأحكي لـه حكايـات جدّتـه، سـأجبره علـى سماعهـا، وسيسمعها، ويحفظها.

انكـسرت كـأس أخـرى، وارتفـع صـوت الـزوجة الغاضـب، غابت لحظات النشوة سريعاً، أغمضتّ عينيّ في محاولـة لاسـتعادتها، امـتدت الـشوارع تحـت الـشرفة، وامتلأت بالناس.

الـناس يـرفعون رؤوسـهم ويتمـتمون، تـتوالد أقـواس صـغيرة، ثـمّ تهـرب لتتلاشـى في البعـيد، الـناس يهـرولون صوبها، وهي تبتعد و تغيب.

أحـضرت خـيال أمـي لأستفـسر منها، جـاءت حـزينة، تـرفع وجههـا إلى الـسّماء باندهاش، وعيـناها تـتابعان بانكسار وحزن قوافل الأقواس الهاربة.

عيون الحارس النّائم

إلى عبد الله عبد. حاضراً كان، كالهواء.

أيّام مرّت والعصافير تخاتله، تترامح كشهبٍ رماديّةٍ حوله، تنقضّ وتحلّق بحذر، تحطّ في الطّرف البعيد للحقل، تتراقص هناك مثبّتةً أنظارها إليه حيناً، و حيناً تنفش ريشها وتتفلّى، ثمّ تمسح المكان بنظراتٍ مستكشفة، وتتساءل بكثيرٍ من الحيرة: ما هذا الحارس الكسول؟!

لم يغيّر وضعيّة البندقيّة، هي مرفوعةٌ منذ انتصب هناك، كمّا قميصه يهتزّان أمام النّسمات، ثمّ يهدأان، وترفرف كوفيّته بحياء، وقد تلتفّ حول وجهه لتأتي نسمةٌ أخرى، فتعيدها إلى مكانها.

كالصّنم يقف الحارس، لا يتعب من وقوفه إطلاقاً، لا أحد يعرف، لا العصافير، ولا الحارس، ما مهمّة هذا الصّنم الواقف. أحياناً يأتي صديقاه، يلقيان التّحيّة عليه،

ويصافحانه، يمازحانه قليلاً، فتتغيّر وضعيّة البندقيّة، وربّما يلفّان الكوفيّة جيّداً حول رأسه، يجلسان قربه، ويبقى واقفاً، يتمشّيان ويركضان، وهو ينتظر.

العصافير تراقب المشهد من بعيد، فتزداد حيرةً وتساؤلاً، حتّى صار بإمكانها أن تحمل في قلوبها الصّغيرة بعض المودّة لهذا الحارس الهادئ، وتزداد المودّة أكثر حين يجيء صديقاه المشاكسان، يتقافزان ويركضان حوله دون أن يتخلّى عن كبريائه، أو يتنازل عن شموخٍ يعجبه، ويتباهى به.

يتركه صديقاه ويمضيان ليعودا في الصّباح أكثر مشاكسةً، يمازحانه بقسوة، وقد يلقيانه أرضاً، ثمّ يوقفانه ويقهقهان. أحدهما حاول رفسه على وجهه، لكنّه سقط أرضاً، وبقي الحارس واقفاً يتمايل بزهوّ. فرحت العصافير لزهوّه، ولسقوط صديقه الأرعن، صديقه الآخر أمسك يديه وشرع يراقصه، والصّديق الّذي سقط تجرّأ أكثر فرفع معطف الحارس، ظهرت ساقه الوحيدة، فحزنت العصافير، كيف للحارس أن يقوم بمهمّته وهو بساقٍ واحدة..؟! تتساءل العصافير، وتزداد المودّة في القلوب الصّغيرة الدّافئة.

الأيّام تتوالى، تطمئنّ العصافير أكثر إلى صديقها، تحطّ حوله، وتتناول حصّتها من البذار بأمان، وقد تحطّ على يديه المرفوعتين، أو تقفز على رأسه، تمسح مناقيرها الصّغيرة بكوفيّته، وقد تداعبه أكثر، فتغرز مناقيرها في رأسه الطّريّ. يأتي الصّديقان المشاكسان، فتقفز العصافير مبتعدةً وخائفةً، يلمحانها، فيثور الغضب على وجهيهما، يتّجهان إلى الحارس، يعاينان الذّراعين والكوفيّة، ويغيّران وضعيّة البندقيّة، يزداد غضبهما حين يتأكّدان من صداقة العصافير والحارس، وقد بقيت آثار تلك الصّداقة بقعاً صغيرةً على الكوفيّة والذّراعين والبندقيّة. يحملانه ويوقفانه في مكانٍ آخر، يبدّلان وضعيّة الذّراعين، ويحمّلانه بندقيّةً أطول، يضعان قبّعةً سميكةً فوق الكوفيّة، ينهيان المهمّة، وترتسم طمأنينة على وجهيهما.

العصافير تراقب مختبئةً بين الأغصان القريبة، تنتظر رحيل الصّديقين، لتعود إلى الحارس، وتواسيه، تقف فوق القبّعة وتزقزق، فتهتزّ القبّعة والكوفيّة، ويضحك الحارس، تزيد العصافير من حركاتها وزقزقتها ليضحك أكثر. تسقط القبّعة أرضاً، تحاول العصافير رفعها، فلا تستطيع، تحزن وتحار، فلا بدّ أنّ صديقها الحارس سينال عقوبةً بسببها. تهبّ نسمة هواءٍ قويّة، تطير

الكوفيّة عن رأس الحارس، تظهر كرةٌ قماشيّةٌ طريّةٌ، محشوّةٌ بالقشّ، تندهش العصافير، ويدفعها الفضول إلى اكتشافٍ آخر، تنقر الرّأس الطّريّ، فتنجرح الكرة القماشيّة، وتزداد رغبة العصافير بالاكتشاف.

سيأتي الرّبيع القادم، وسيفرغ رأس الحارس، يتوزّع إلى أمكنةٍ كثيرةٍ، فالعصافير ستبني أعشاشها، ولا بدّ للمناقير الصّغيرة النّشيطة أن تنقل القشّ المحشوّ في الرأس الطّريّ، وتصنع أعشاشها، رأسٌ واحد يكفي لتشكيل عشرات الأعشاش، وستمتلئ الأعشاش بالبيوض، وسيفرح الحارس النّائم.

وتمرّ أيّامٌ دافئة، تفقس البيوض، وتخرج العصافير الصّغيرة، وستنتقل الحكاية جيلاً بعد جيل، ربيعاً بعد ربيع، ستحكي أمّهات العصافير لأفراخها الحكاية من أوّلها، وستتطاول الرّؤوس الصّغيرة، وتشرئبّ الأعناق النّاعمة فوق حافّة العشّ كلّ صباح، لتلقي التّحيّة بفرحٍ على الحارس الجميل الّذي منحها رأسه، وبعض النّتف من كوفيّته قبل أن ينام بهدوءٍ في الزّاوية البعيدة.

هو صوتها

هناك... قريباً من النّبع.

في غفلةٍ من هزيم الرّعد، وهدأة وادٍ يضجُّ في صخب نهارٍ عاصف، هناك، تسمّرت واقفاً، أتاني صوتها، نظرت إلى ساعة يدي، أجل هو صوتها، موعد الأذان.

مرّت لحظات الصّمت، وعاد الوادي إلى صخبه، شمّرت عن ساقيّ، ونزلت أجتاز جدولاً، ماؤه دافئ هزهاز، لم يفاجئني دفء المياه، فأنا أعرف جيّداً الجداول الشّتائيّة، والينابيع الفوّارة، ولي صداقةٌ قديمةٌ مع هذا الوادي، الماء يداعب ساقيّ بشوقٍ، أرنو إلى تدفُّق المياه، وأنقل قدميّ ببطءٍ وبشوقٍ كبير.

عدت إلى الصّوت، استطعت أن أحدّد المكان بشكل تقريبي، إذ لا يمكن تحديد الأماكن بدقّة في هذا الوادي الممتلئ بالأمكنة المتغايرة.

الجميع قالوا: إنّها تسكن هناك، والصّوت الّذي وصلني منذ قليل يؤكّد ما يقوله النّاس.

أمّي نفت قائلةً:

- تلك حكايةٌ قديمةٌ يا ولدي.

لم يعجبني كلام أمّي عنها، فلا يجوز أن تحوّل قضيّةً مؤكَّدة إلى حكاية قديمة لا تتجدّد، تضمّها إلى باقة الحكايات المسلّية في شتاءاتٍ مضت منذ زمنٍ بعيد، سألتها:

- وجدّي، ألم يطعمها من زوّادته..؟ أنت قلت ذلك.

مدّت يدها تسوّي خصلات شعرها المبيضّة، تحشرها تحت شالٍ عبثت فيه الرّيح الشّرقيّة بخشونة، فراح يتطاير ليكشف بياض الشّعر، ويعاقب أمّي حين حوّلت الحقيقة إلى حكاية، مجرّد حكاية!!!

- كان ذلك في ليلةٍ صيفيّةٍ يا ولدي، أجل. هي ظهرت له، كشفت أمامه وجهاً ملائكيّاً. هكذا قال، وجدّك لا يكذب.

الآن أتأسّف، فقد شككت. أمّي جعلتني أشكُّ وأتساءل: من أين لها الوجه الملائكيّ..؟ اللّه يخصّ عباده الأتقياء بتلك الوجوه، فلماذا يخلقها على هذه الهيئة، ويمنحها وجهاً ملائكيّاً..؟

صوتها أبعد الشّكّ عنّي، وصبغ عليَّ حالةً يقينيّة جعلتني أمضي باتّجاه مصدر الصّوت. تجاوزت الجدول لأصعد حافّةً مفروشة ببقايا حشائش، تيبّست ثمّ تعفّنت، تمسّكت بأغصان شجيراتٍ تدلّت فوق الحافّة، تسلّقت بهدوء محاذراً رخاوة التّربة.

في الأعلى، كان حفيف الأغصان طاغياً، والأشجار العالية الضّخمة فوق الجدول، عرّاها الشّتاء، فراحت تتمايل باستحياء. وإلى البعيد، حيث الجبال تنهض حول الوادي الملتفّ غرباً باتّجاه البحر، تنشر الطّبيعة عطرها الشّتائيّ غيوماً وضباباً كثيفاً، يفصل السّماء عن الأرض، أو يلاصق بينهما بعناقٍ حميم.

لم أفكّر أبداً بالمجيء إلى هنا شتاءً، الأفق يتبدّل لونه في الشّتاء، وتنقلب خضرة الجبال إلى لونٍ رماديٍّ داكن. قلت لنفسي:

- أنت مجنونٌ يا خطّاب.

وتابعت المسير.

هنا يضيق الوادي كثيراً، وعلى بُعد عشراتٍ قليلةٍ من الأمتار يلتقي سفحان بانكسارٍ حادّ. أعرف المكان جيّداً، هنا ملعب الطّفولة بكلّ ما تحمل من شغب، الذّاكرة تكشف المكان، تفرشه أمامي بتفاصيله كلّها،

هـناك مغـارةٌ ضـيِّقة، وقـرب المغـارة نـبعٌ يـتدفَّق بـشدّة، وينسـكب في الجدول القريب هذا.

تـوقّفت منـصتاً، علّهـا تـسعفني بـصوتٍ آخـر، فأحـدّد مكانهـا بدقـة. نـسيت أنهـا لا تـصيح سـوى مـرة واحـدة في اليوم. الـشيخ الغزلانـي أمـرها بـذلك، لتذكّـر الكـائنات بموعد الصلاة الوسطى. أرسلها إلى هنا، و فجّر لها هذا النبع الصافي لتشرب و تستحمّ و تتوضّأ. كل الكائنات هـنا تـصلّي، الأشـجار والنـبع والنهـر والطـيور، الـرياح والجبال والضباب، وهي هناك تؤذّن.

أهالـي قـريتنا كلهم يـؤكّدون ذلـك، الشيوخ يقرؤون كتبهم ويخـشعون، تدمـع العـيون وتـزهد الوجـوه، تـصعد الأنظار إلى قمّة الجبل الغربيّ، الشيخ الغزلانيّ يرقد هناك منذ زمـان لا أحـد يـستطيع تحديـده، هـناك المقـام المهـيب وسط غابة السنديان.

الغـزالة تـزوره كـل صـيف، ثـم تعـود إلى كهفهـا في الـوادي، الغـزالة ذات الـوجه الملائكـي، سـتظهر لـي كـما ظهـرت لجـدّي حـين أطعمهـا مـن زوّادتـه، سأسـحبها مـن قرنيها وأقودها إلى بيتنا.

ـ لا يجوز ذلك يا خطّاب، يا ولدي.

رمقتني أمـي بـازدراء وهـي تتلهّـى بسبحتها بُعيد صلاة العشاء، طمأنتها قائلاً:

ـ أنا أمزح يا أمي، فقط أريد رؤيتها، لن أؤذيها إطلاقاً، كيف أفعل ذلك وهي خادمة سيّدنا الغزلانيّ..؟ كيف..؟!.

السفحان يتقاربان كثيراً، ثم يتلاصقان مثل فكّي حيوان خرافيّ بحجم جبلين، وربّما كان المكان في حقبة قديمة حيواناً حقيقياً، تحنّط ذات يومٍ فصار جبلين. يا الله، كم أنت أرعن يا خطّاب..!

بضع خطوات وأصل إليك يا مكحولة، أرجو أن تقبلي عهدي، سأقدّم لك باقة حشائش مغسولة، أنا لا أحمل زوّادة لأطعمك منها. سأعرض حشائشي ورغبتي الشديدة بأن ألتقيك، أرجو ألاّ تعرضي جفاءك، كل ما أبتغيه هو أن أراك، أرى وجهك الملائكي، وأرغب أيضاً أن ترافقيني، ولو لبضع دقائق، أتباهى برفقتك يا مباركة، هو عهد مني، لن أؤذيك، ولن أسمح لمخلوق أن يقترب منك. أرجو أن تظهري الآن، دعيني أجلس معك قليلاً، بل طويلاً سنجلس، ستحكين لي كما حكيت لجدّي، وإن لم ترغبي بمرافقتي، أنا مضطرّ لأن أحكي.

سأروي ما حدث معي، أجل، سأثبت أنني حفيدٌ صالحٌ لجدٍّ صالح، الذين لن يصدّقوني كثيرون، كما كان أجدادهم الذين لم يصدّقوا جدّي كثيرين. سأقسم ولن

يصدّقوا، لا يهمّني ذلك يا مباركة، ما يهمّني فقط هو أن تحكي لي بلغتك التي سأفهمها، أو بلغتي التي تتقنينها.

ما السرّ الذي تحملينه يا مكحولة؟ و ما الخطيئة التي اقترفتِها في لحظة لم تواتِك فيها الحكمة، فغضب عليك سيّدنا الغزلاني، وحوّلك إلى هذه الهيئة؟ ما السر يا مكحولة..؟ ما السر.؟

أخبار كثيرة تحملها الريح الشرقية، تأتي مندفعة من الوادي الغربيّ، تحمل معها نثار ضباب بارد، تلتفّ حولي بعداء واضح، تطوّقني، تهزّني قليلاً صارخةً بأشياء لا أفهمها، أنا كائن مسالم أيّتها الريح، صديق لك وللغزالة، للضباب والنهر والنبع والمغارة، فلم العداء..؟ تتركني الريح وتغادر بهياج صوب المغارة، وهناك تتزوبع وتطير حاملة معها أوراق أشجار استعصت طويلاً حتّى وهنت، طيّرتها الزوبعة إلى فوق فاغبشّ الأفق وتكدّر.

المسافة بيني وبين المغارة قصيرة، لكنها مشغولة بألف خطاب وخطاب، أسئلة كثيرة أرسلها صوب زاوية الانكسار الحادّ، رجاءات وتوسّلات تبثّها عيناي، لتصل إلى ساكنة المغارة. الأسئلة تصل هناك، تصطدم بقرنين عنيدين، فتعود الأجوبة غير مطمئنة، والتوسلات تحملها الريح وتذروها على أمواج ضباب محايد.

ـ لن تجدني يا خطّاب، ولن تسحبني من قرنيّ، ضحكت عليك أمك أيّها المشاكس الضعيف، يا جاهلاً مقدرتي وسرّي. أنت معتكر ومخادع، لست صافياً كجدّك، عد إليّ حين تصفو، لأنظر بأمرك.

ـ أرجوكِ يا مكحولة، أرجوكِ أن تتكشفي، أضيئي بوجهك هذا الغبش الكونيّ، فيضيء قلبي، وأصفو، كرمى لسيّدنا الغزلانيّ، أستحلفك ببركاته أن تريني وجهك، فأطمئن.

مطر غزير يغسل كل الأشياء، فتصير إلى شفافية ما بعدها شفافية، حتى الأسئلة المواربة والرجاءات المخادعة يغسلها المطر، فتتفضح وينكشف مكنونها عن تلوّث تقرأه المكحولة فتقارن بيني وبين جدّي، وترسل أجوبتها صافية كماء النبع:

لن أخرج يا خطّاب.

شددت معطفي المطريّ جيّداً، رفعت قبّعته وربطتها. سأمشي بحذر، وألوّح بباقة الأعشاب المغسولة، وأصلّي. وأمام باب المغارة سأجثو، لن أدخل شدق حيوان خرافيّ تحنّط ذات يوم، سأعتذر من شجاعتي وأضعها جانباً، فالليل أوشك. ها هي بواكيره الرماديّة تتقدّم شاملة جميع الأماكن.

طال مكوثي أمام باب المغارة، تتلبّسني نظرتان، واحدة إلى الداخل، راجية، وواحدة إلى الخارج البعيد، مستوحشة.

اليأس سيدفعني خارجاً، سأتوهم غابة من الغزلان أغصانها قرون شامخة، تواكب صعودي. سأصل إلى البيت وأطمئن أمي، أمي المنتظرة على قلق سيهدأ بمرآي. سيسخر مني وجه جدي المصلوب على الحائط في إطاره الفضيّ، سأقف أمامه معاتباً، هو لم ينصحني، لم يكشف لي لعبته القديمة، وسرّه القديم.

لا بدّ أن أخلق سرّاً جديداً، ولعبة جديدة، قلّص جدّي جبينه في الإطار المعلّق، فابتسمت بمكر:

ـ أنا حفيدك أيّها الجدّ، وريث أسرارك وحكاياتك.

لا بدّ أن أعود منتصراً، سأكذب كما أشاء، ستصدّقني أمي، هي طيّبة، وساذجة قليلاً، سيصدّقني وجه جدّي، هو مجبر على ذلك أمام الناس، وأمام حفيده الصالح. سيصدّقني الكثير من المؤمنين. وسيّدنا الغزلانيّ لن يؤاخذني، بل ربّما يشكرني، لأنني أطعمت غزالته المكحولة باقة أعشاب مغسولة.

صوفيا وعبدو الفوّال

كثيرون من أهل الغوطة صاروا على يقين من أن صوفيا لورين عشقت عبدو الفوّال، وهذا اليقين لم يأت من عبث، هناك شهود كادوا يقسمون الأيمان المعظّمة لولا تدخّل شيخ الحارة الّذي أفتى بعدم جواز اليمين في هذا الأمر. فمن يصدّق بعد كلّ الذي جرى أنّ الموضوع كلّه لا يتجاوز كونه كذبة بيضاء، لعبة لعبها عبدو الفوّال بعدما لعب أصحابه بعقله؟

الشّهود رأوا بعيونهم التي سيأكلها الدّود فصلاً من فصول ذلك العشق، تحت شجرة الجوز المكوّخة فوق السّاقية تعلّقت صوفيا بعنق عبدو، أسندت صدرها إلى صدره بغنج فاضح، أبعدت وجهها عنه قليلاً، وراحت تتأمّل ملامحه وتبتسم، ثمّ تلفّظت بكلمتين أو ثلاث قبل أن تطبق على وجهه بالقبل. بدا عبدو الفوّال مُحرجاً حرجاً شديداً، فلم يعرف كيف يتخلّص من ذراعيها المتشابكتين

خلف رقبته. والدّفء الغريب في أنفاسها وصدرها جعله كالمحموم. الرّغبة في العناق لا تُقاوم. وعيناه اللّتان تعبتا من مراقبة المكان اطمأنّتا أخيراً إلى خُلوّه من جميع خلق الله، تجرّأ حينذاك واحتضن صوفيا بقوّة، سمع طقطقة أضلاعها وهي تتلوّى بين ذراعيه مستسلمة لعناقه، ومنتشية برائحة عرقه المختلطة برائحة عرق الحصان، وبعبق الخضروات والحشائش البرّيّة.

حين حكى لأصحابه لم يصدّقوه، وعلى الرّغم من أنّ الشاهدَين اللذَين أكّدا صدق حكايته عادا وأكّداها مرّة أُخرى أمام الشّيخ الّذي منعهما من حلفان اليمين. ولأنّ النّفس شكّاكة فهي لا تستسلم للظنون، وسرعان ما تدفع صاحبها للتأكّد بذاته، تسلّل بعض الفضوليّين إلى حقل أبي عبدو الفوّال، وشاهدوا ما شاهدوه في منأى عن حرص عبدو ومراقبته الدّقيقة تحت شجرة الجوز تلك.

زعيم شباب الغوطة تمنى أن تكون الحكاية كذبة، فقد ذاع الخبر في الأحياء والقرى القريبة، وربما وصل إلى أبعد من ذلك، وإن لم يتم تكذيب الخبر فسوف يكون لعبدو الفوال شأن آخر، وهذا ما يغيظه. طلب منه الزعيم أن يحكي الحكاية من أوّلها، فأبدى عبدو ارتياحاً، وراح يشرح. حين اجتاز محطّة الحجاز برفقة

صاحبيه متوجّهاً إلى ساحة المرجة فوجئ بصوفيا لورين تقف مع رجلين آخرين في وسط الشارع، جمدت الفتاة في مكانها، حتى كاد الحصان يدوسها، ابتعدت قليلاً، وراحت ترطن وتشير إلى عبدو بالنزول من العربة، اندهش واستغرب، ماذا تريد هذه الفتاة الأجنبيّة؟ فهو لم يكن قد سمع بعد بصوفيا لورين.

نزل عن العربة، واقترب من الفتاة مستطلعاً، وحذراً من الرجلين الآخرين، جهّز نفسه لعراك يضمن نتيجته في صالحه، لكن صوفيا وقفت أمامه مبتسمة، تكلمت فلم يفهم عبدو شيئاً، اقترب أحد الرجلين وترجم كلام صوفيا. استدار عبدو الفوّال إلى صديقيه الشاهدين وقد سمعا ما نقله المترجم، فراحا يتغامزان ويضحكان. طلبت صوفيا لورين أن تتعرّف إلى بيت عبدو الفوّال بعدما سحرها بسمرته وخشونته. وعدها عبدو بأن يصطحبها في طريق العودة، حاول التملّص منها، غير أنها تبعته خطوة خطوة، فلم يجد إلا أن يمتثل لرغبتها، فرافقته إلى بستانه في الغوطة، ثم تتالت اللقاءات بكثرة.

كل ذلك شرحه عبد الفوّال للزعيم قبل أن يخرج بشهادة تباهى بها أمام أصحابه، حيث بصم له الجميع بالعشرة أنه ملك الإغراء في الغوطة كلها.

مـريومة لم تـصدّق، حلفـت بـروح أمهـا أن تجعـل ممّـن يتلفّظ بكلمة سوء عن خطيبها عبدو عبرة لمن يعتبر، وهي لا تحلـف بـروح أمهـا كـذباً، لأن الأم تـزورها دائمـاً في المنام، تحذّرها من الكذب والخداع، وتبارك لها خطبتها على ابن عمّها عبدو. صحيح أن مريومة لا تعرف أمها، فهي لم ترها. فقد افترقتا منذ ولادة مريومة، لكنّها ترى خيالها، وتحفظ شكلها، حتى باتت من أعزّ صديقاتها. تؤكّد أمام صديقاتها أن حكاية خطيبها مع صوفيا قصّة مختلقة لتشويه سمعة الشاب، وسمعة العائلة. لكنها عندما تختلي لنفسها تساورها الشكوك، تأتي أمها في المنام وتزيل كل ما يعيق الطريق الصحيح لحياتها القادمة مع ابن عمها، وكانت الشكوك أهمّ تلك المعوّقات، فليست مريومة الفوّال من ترضى بالغدر ولا بالخيانة.

من حقّ مريومة أن تشكّ، فقد رأت من جفاء خطيبها ما رأته. تعزو أحياناً تقصيره وجفاءه لأسباب تتعلّق بتلك الحكاية التافهة والرخيصة، فمن هي صوفيا لورين حتى يستبدلها بها؟ هي مريومة التي لا تتكبّر على أيّ عمل. ترافق ابن عمها إلى الحقل، تساعده في أعمال الفلاحة والجني، تقول لنفسها: (أعوذ بالله. عبدو لا يفعلها) هي محقّة بهذه الثقة، فعبدو يحلف بعينيها دائماً، وأصعب شيءٍ لديه أن يرى عينيها تدمعان، لا يطيق ذلك. يصرخ

أحياناً بغضب حين تبكي ، وأحياناً أخرى يمسح دموعها بكفّيه:

ـ (لا تبكي يا مريومة. لا تبكي أرجوك. لا أطيق رؤية هذه الدموع)

مريومة تجد نفسها بحاجة إلى البكاء. كم كذّبت أذنيها، وكم عاتبت وحاربت دفاعاً عن حبّها الوحيد!! لكنها بعد أن عرفت الحقيقة انزوت إلى بكاء هستيريّ، محافظة على سمعة العائلة بعد كل ما فعله ابن العم، هي لم تقطع علاقتها به، وإنما بدت كأنها تسامحه، أو تعطيه فرصة ليحسم أمره، فإما مريومة الفوّال، وإما تلك الطليانيّة صوفيا لورين. هي تتذكّر جلساتها مع صاحباتها، بعضهنّ أكدن أن صوفيا إيطاليّة، وبعضهنّ الآخر قال إنها فرنسية. اعترضت مريومة:

ـ لا يمكن أن تكون تلك الغدّارة فرنسية، لو كانت كذلك لما تجرّأت وعشقت ابن الفوّال. لأن آل الفوّال أذاقوا الفرنسيين الويلات بين بساتين الغوطة. ولو كانت فرنسية لما عشقها ابن الفوّال أيضاً، فذلك لا يليق بعائلة لها ماضيها في محاربة المحتلّين، ماضيها المجيد طبعاً.

في الليل تتواتر الأخيلة في ذهن عبدو، ماذا لو كانت الحكاية حقيقيّة؟ يتساءل، وتزداد تساؤلاته، لنفترض

أنـك يـا عـبدو تعرّضـت إلى حالـة عـشق كهـذه الـتي اخترعـتها، كـيف سـيكون الأمـر؟ لـيس سـهلاً علـيه أن يقـرّر، غـدا متأرجحاً بـين حبّه لمـريومة، وعـشقه لصوفيا، بـين تـاريخ أقاربـه الأبطـال الـذين هـزموا المحتلّين الأغراب، وبين نصائح أصحابه:

ــ (تأخـذك إلى إيطالـيا، أو إلى فرنـسا يـا رجـل. صدّقني مـا مـن عاقل يـرفض هـذه الـصوفيا) وحـين ينام لا تغـيب الـصورة عـن خـياله، الـصورة الذهنـيّة يقارنهـا مـع الـصورة الحقيقـية الـتي رآهـا مـع صـديقه، وكـانـت بدايـة الحكايـة اللعـبة. تـراه يعـشق الـصورة الذهنـية أكـثـر، يـضيف إلـيها صـفات شـرقيّة، ويـصدّقها. النـصائح تأتـيه كمعزوفة لم تنته بعد، وما إن يقترب من النهاية حتى يأتي خيال مـريومة وصوتها. هو أيضاً يحب خطيبته. ألا يستطيع أن يجمـع بـين امـرأتين؟ هـو قـادر علـى ذلك فما الذي يمنع؟ لديـه مـن البـساتين مـا يفـيض عـن أسـواق أوربـا بالفـول والبقدونس والبندورة، بالجوز والمشمش والجانرك، فلماذا لا يفعلها ويتزوّج اثنتين.

لا بـد أن يفكّـر في الأمر. هل تقبل مريومة بالعيش مع ضـرّة؟ أجـل سـتقبل، شـاءت ذلـك أم أبـت. المهـم أن تقـبل صوفيا ،لأن خسارتها أكـبر. كـيف سيشرح الأمر لأبيه،

لأقاربه، للناس، كيف؟ أمور كثيرة تشغله، وهموم باتت تنكّد عليه ليله، وكي يهرب من همومه يطير بخياله إلى إيطالية. هناك تنفرش تلك البلاد أمامه كحقل واسع، مزارع وأنهار، أشجار وطيور، نساء ومشروبات. يستغفر ربّه حين يذكر المشروبات ، فهو لم يذق طعمها في حياته، هناك، الأمر مباح، فلماذا لا يشرب؟ حقاً لماذا لا تشرب يا عبدو؟! وقبل أن يتمادى كثيراً في تخيّلاته ينهض متثاقلاً، يصلّي صلاة الصبح، يبتهل إلى الله أن يهديه سواء السبيل، ثم يعتذر من خطيبته مريومة، وينام.

سيأتي يوم تعاتب فيه مريومة الفوّال زوجها عبدو عتاباً شديداً، وربّما تكون خصومة، وخاصّة حين تلمح شعرة شقراء على معطفه، سيقسم إن تلك الشعرة هي من شعر مريومة، وهي لن تصدّق، فشعرها أسود، ربّما لأنها منذ زمن لا تدقق النظر جيداً في المرآة، سيضحك عبدو بشماتة:

ـ كان أسود يا بنة العمّ، كان. يا مسكينة، انظري في المرآة لكي تدركي الحقيقة.

ستزعل، وتخاصمه. وكي تثبت التهمة عليه ستفتّش جيّداً عن دليل آخر. يهبط نظرها إلى حضنه. تصرخ:

ـ وهذه يا عبدو؟! هذه الشعرة أيضاً من شعري؟!

يتناول عبدو الشعرة، فيها شيء من القساوة، يفكّر، يتأمّل، تشرد عيناه، تخططان للعبة أخرى، يتراجع فجأة:

ـ هذه من ذيل الحصان يا جدباء. دققي جيداً. أهذا شعر بني آدم؟ كفاك ظنوناً يا مرأة. سوف تصيرين جدّة، وما زلت تتمسّكين بحكاية ملفّقة؟ كلها كذب بكذب، أولاد الحرام لعبوها، وألصقوها بي.

ـ ولكنك اعترفت بذلك. وأنا رأيت بأم عيني، فهل أكذّب عينيّ؟!

ـ لا. لا تكذّبي عينيك. سأريحك. نعم إني تزوّجتها، وهي تسكن قريباً منك، بنيت لها منزلاً في طرف البستان الغربيّ، ولي منها أولاد أيضاً. هل يعجبك ذلك؟

وقبل أن يحتدم النقاش، ويتحوّل إلى خصومة، تدخل ابنتهما الصبيّة، تحمل في يدها مجلّة مفتوحة، تبتسم وتقرأ بصوت عالٍ:

ـ (سنوات مرّت، وما زال لغز موت الفنانة صوفيا لورين غامضاً)

يقهقه عبدو الفوّال، ويرمق مريومة بنظرة تشفٍّ وازدراء، تندهش مريومة للخبر، تتناول المجلّة من يد ابنتها وتستفسر:

ـ أين صورتها؟ متى ماتت؟ أين هي؟ دلّيني عليها يا بنتي.

يقع نظرها على الصورة، وتشير الابنة إلى الخبر، وتعيد قراءته بصوت عالٍ وهي تدلّ بسبّابتها إلى كل كلمة تلفظها. تتأمّل مريومة الصورة، تعجبها النضارة، الشعر، الابتسامة الجميلة، تجهش بحزن وأسى:

ـ (يا حرام... كان بكّير، اللّه يرحمك، يا ضيعان شبابك يا صوفيا)

ضيوف الجدّة

(ملعون أبو أبوك يا عكروت)

وصلني صوتها متواتراً بين خوف وغضب، تذكّرتُ، منذ مدّة طويلة لم أرها، اشتقت إليها، ناديتها فلم تجب، قرعتُ الباب وفتحتُه بهدوء، رأيتها ترفع عكّازها وتضرب الجدار الأصمّ، تصرخ، تشتم وتضرب، لم تنتبه لدخولي، تنحنحتُ وحييتها:

- اللّه يعطيك العافية يا جدّة.

التفتت إليّ، لمحتني، ثم عادت تضرب من جديد، وكأن أحداً لم يدخل عالمها المنغلق على أشيائها العتيقة، سرير حديدي مفروش، ومغطّى بلحاف بهتت خطوطه الزرقاء، أريكة قديمة بجانب السرير، بساط رقيق ممدود تحت النافذة الغربيّة، كرسي صغير، وقربة ماء فخّارية، وفي زاوية أخرى قريبة من الباب، ركن لعدّة الطبخ.

هـدأت قلـيلاً، ورمقـتني بعيـنين صـغيرتين، غطّـت بؤبؤيهما زرقة داكنة، ومساحة صغيرة من البياض.

بان غضب على وجهها :

ـ من أنت؟ لصّ آخر؟

أسرعت بتقديم نفسي لأتحاشى شتائمها:

ـ أنا ميمون يا جدّة، ميمون ابن زلفا.

عادت نحو البساط وهي تلهث:

ـ ادخل يا ميمون، يا بن الغالية، كيف حال أمك يا ميمون؟

خطوت خلفها ببطء، أراقب حركات رأسها ويديها المتوتّرة:

ـ بخير يا جدّة، وتسلّم عليك. مع من تتقاتلين؟

التفتت ثانية إلى الجدار، رفعت عكّازها وراحت تهدّد:

ـ قلت لك اخرج يا بن العايبة، اخرج يا جبان.

تقـدّمتُ مـنها أهـدّئها، أمـسكتها مـن ذراعهـا، استسلمت لقبضتي وعادت معي وهي تبربر، أجلستها على الأريكة، وجلست قربها، نظرتُ إلى الجدار، العكّازة تركت آثاراً سوداء صغيرة، زادت الجدار اتّساخاً.

عـــدت بنظـــري إلـــيها ، رأيـــتها تـــسوّي فـــستانها الفضفاض، تحشره بين جسمها النحيل وبين الأريكة ، استندت إلى عكّازها واضعة طرفها تحت ذقنها ، وراحت تهتـزّ، وكـأن الـوجه المجعّـد بعينـيه الـصغيرتين يخطـط لإتمام معركة بدأتها منذ قليل، ولم تنته بعد ، هي هدنة قصيرة ريثما أمضي.

ـ أما زال يأتي إليك ويشاغب يا جدّة؟

أجابت باهتمام:

ـ لا ، هـذا غـيره، يـريد اغتـصابي. كلـهم أنجـاس وأولاد كلب.

ضغطتُ على كفّها المعروقة:

ـ اهدئي يا جدّة ، اهدئي.

الجدار المبقّع يشبه وجهها ، كل شيء في هذه الغرفة البائسة يشبهها. تملّيت وجهها ، خدّاها غائران، ينبض تجويفاهما بارتعاش، تلوك باطن خدّها ، وكأنها تجترّ، شـفتاها انـسحبتا إلى الـداخل بـشدّة، الـشفة الـسفلى مشدودة وناصعة، أما العليا فقد تجعّدت كثيراً ، تقاربت عليها خطوط طولانية صغيرة حتى كادت تتلاصق،

الشفة منكمشة فوق نابين متباعدين.

ـ يا ميمون، أين رحت يا بن ال...

- أنا هنا يا جدّة، أنا هنا.

وسبقتها قبل أن تنطق بالشتيمة.

- ها، أنت هنا، ما هذه الأصوات يا ميمون؟ هل بدأت الحرب؟

وراحت تتلفّت، تمسح بعينيها المنطفئتين ساحة معركة مجهولة النتائج، وجدتُ نفسي مجبراً على دخول معركتها. فرسان كثيرون يتصارعون، يتحاربون بسيوف مفضّضة، الأحصنة والأفراس تشرئبّ وتصهل، والغبار يتعالى مالئاً الساحة الترابيّة. حشود المتفرّجين على محيط الساحة الواسعة يصفّقون، يشجّعون ويندّدون، وسيّدة الحسن والدلال تنطلق من غرفتها البائسة، المسكونة بضيوف مزعجين، لتستقرّ على منصّة ناهضة، تراقب الفارس الذي سيحظى بها.

كنت أجيب عن أسئلتها باقتضاب، تاركاً لخيالي مراقبة حرب يموت فيها رجال، ويخرج رجال آخرون بأكاليل النصر، تتبعهم الزغاريد والهتافات. وأعود إلى الوجه الضامر لأتابع أجوبتي المقتضبة. لكن أسئلة الجدّة ازدادت حساسية، وصار عليّ أن أجيب عن أدقّ التفاصيل:

- من ذاك الرجل يا ميمون؟

- أيّ رجل يا جدّة؟

- صاحب البدلة الزرقاء، ذاك، ألا تراه؟

دخلت لعبة يصعب عليّ فهمها:

- إنه صالح يا جدّة.

- صالح، من صالح؟؟

- صالح الفطّوم، ألا تعرفينه؟؟

- ها، صالح الفطّوم. أجل، أجل. وتلك الصبيّة، ما أجمل ضفائرها!! من تلك الصبيّة يا ميمون؟

- إنها ابنته.

- ابنته!! وهل تزوّج صالح الفطّوم؟

لا أدري كيف ورّطتُ نفسي، لماذا خطر هذا الاسم في ذهني، لا أعرف رجلاً يحمل هذا الاسم، لكنني وجدتُ نفسي أتعاطف معه لكثرة الشتائم التي نزلت عليه.

لهذه العجوز مع كل رجل قصّة، فصالح الفطّوم هو خطيبها الذي تخلّى عنها، عرفت ذلك من المعلومات التي كانت تبثّها وهي تشتم و صالح الفطّوم ابن مختار الحارة الشرقيّة. حكت سيرتها معه بالتفصيل، بقرف وغيظ، ثم أتبعت الحكاية بكثير من الدعاء لله بأن يقرف رقبته، ويقطع ذرّيته.

أصوات الطبول والمزامير تقرع في الخارج، تدخل غرفة الجدّة، فتندهش وتسأل، وأنا مجبر أن أخترع اسمين لعروسين، ومكاناً يقام فيه العرس، وفترة الخطوبة، ومقدار المهر، وأشياء لا تخطر على بال أحد. لكن هذه الجدّة تسمع ما لا يُسمع، وترى ما لا يُرى، يا لهذه الشيخوخة الغريبة!!

نظرتُ إلى ساعة يدي، تأخّرتُ، عليّ أن أذهب، نهضت مودّعاً:

ـ أتريدين شيئاً يا جدّة؟

التفتت إليّ باستغراب ولوم:

ـ اجلس يا ميمون، اجلس. لم تقل لي بعد، هل عاد أبوك من الأرجنتين؟

ابتسمتُ بشفقة وأنا أرى تغيّر ملامحها، كأنّ شيئاً من الفرح زار خدّيها الغائرين، عيناها أضاءتا قليلاً وهي تنتظر جوابي:

ـ لا يا جدّة لم يعد بعد، لكنه سيصل بعد أيّام. هكذا قال.

هزّت رأسها بانكسار وحسرة:

ـ حسناً يا ميمون، قل لأمّك أن تتركني وشأني، أن تكفّ عن كراهيتي، أعرف أنها تكرهني، هي مسكينة، وأنا أعذرها.

وفجأة يعود الحزن إلى وجه الجدّة، تتناول عكّازها وتتجهّز للنوم، التعب بادٍ على تجاعيد وجهها، ستنام سريعاً بعد خروجي، لن تكون وحيدة، سيأتي رجال كثيرون، يحاولون اغتصابها، لكنها ستدافع عن نفسها، ستقاتلهم بضراوة، ستضرب الجدران كثيراً، ستفيق من عزّ نومها، تتناول عكّازها، وتحارب.

ستفيق في أيّ وقت تشاء، لا فرق عندها بين الليل والنهار، بين الصباح والمساء، ستنتظر حتى آخر عمرها رجالاً وعدوها بالزواج، وأخلفوا وعودهم، ولن يكون أبي آخرهم، أبي الذي سافر إلى الأرجنتين ليجمع لها مهرها ذهباً وفضّة، أبي الذي ينتظرني الآن ليشرح لي بالتفصيل ما يجب عليّ عمله في الغد، لأنني سأسافر صباحاً إلى العاصمة لأنهي له معاملة الإحالة إلى المعاش التقاعدي.

تهویمات

ملك القصر الشرقي

كلما اقتربت منه يتوقف، يرنو إليّ بمحبة. الابتسامة لا تفارق شفتيه. أحيّيه باحترام مطأطئاً أمام بساطته وعفويته. دائماً تجتاحني رغبة للجلوس معه والحديث إليه، ودائماً يتابع مشيته وكأنه لم يرني، ولم يبتسم في وجهي، ولم يتمتم، متجاهلاً رغبة لديّ لا شكّ أنه يدركها . أتطلّع إليه مخذولاً، يتركني ويمضي. وقبل أن أستدير متابعاً طريقي تصلني جملته اللازمة (يا فاطر السموات و الأرض)

زملائي جميعهم يغبطونني، فهو لم يبتسم في وجه أحد منهم، وكأنه يميّزني عنهم. ما السر في ذلك؟ لا بدّ أن أكتشفه يوماً. يكفيني الآن أنه يخصّني بابتسامته الطيّبة، ولا يستاء من تحرّشاتي به. كل يوم يجتاز الشارع الرئيس مرتين، صباحاً ومساءً، يمشي منتصباً وكأن

عمره المديد لم يؤثّر على صحتّه. يحمل عكازةً نادراً ما يستعملها كعكازة، هي عنصر مكمّل لهيبته ووقاره، وربما اعتبرها نوعاً من الترف.

أعوام كثيرة مرّت على هذا الرجل، لم يتغيّر فيه شيء. المعطف الصوفيّ المرقّع يغطّي جسده النحيل صيفاً وشتاءً، قد يتغيّر لونه، فيبهج حين يغسله المطر، ويصير لونه رمادياً حين يتراكم عليه الغبار. الحذاء هو ذاته منذ سنوات، والكوفية رفيقة المعطف، تشكّل معه بدلة دائمة.

يصدف أحياناً أن يجلس على جانب الطريق، يتأمل إلى البعيد بعينين ساهمتين، في عينيه بريق مضيء كأنهما نجمتان قريبتان، أو كأنه يستذكر طفولة غامضة، يعيشها الآن، ينكشف الغموض عنها فيبتسم، وسرعان ما تعود إلى الاختباء، فيدور بؤبؤاه بحركة لولبيّة، يتسارعان حيناً، وحيناً آخر يهدأان بشرود نادراً ما نراه في العيون.

هذا الكائن البشريّ يذهلني، يملؤني بالفضول لأعرف شيئاً من أسراره، يساعدني في ذلك تميّزي من بقيّة أهل البلدة، فلا يمانع حين أجلس قربه وأتحدّث إليه، يستمع باهتمام ملحوظ، وينصت مؤجّلاً تمتمته وأدعيته.

وحين أسأله يهزّ رأسه ولا يجيب، يكتفي بأن يضع راحته فوق ركبتي، ويضغط قليلاً، أو يمسح كتفي متأمّلاً ملامح وجهي بإعجاب. ينهض دون كلام ويهمّ بالمضيّ، أرجوه أن يبقى جالساً، أن يرتاح، وأعده بأن أصمت، أو أن أذهب وأتركه لخلوته وأسراره. أنهض وأمضي بضع خطوات مترقّباً أن يجاهر بلازمته المعهودة.

معظم الأهالي يرونه صاحب كرامات، فيتباركون به كلما رأوه، وبعض النساء يلقين في حضنه قطعاً من النقود، وهو يعامل الجميع بصمت وهدوء ، ويترك القطع النقديّة ملقاة في حضنه، وحين يلمح الأطفال يشير إليهم بالاقتراب ويناولهم إيّاها باشّاً وسعيداً. وبعض الناس يرون فيه مسّاً أو خبلاً، فيبادرونه بعباراتهم الساخرة، ويردّ عليهم بهزّة رأسه الأكثر سخرية، فيمضون إلى شؤونهم ضاحكين، ويعود إلى تأمّلاته حزيناً.

يأتيني أحياناً في المنام فأفرح، لأنه سيحكي، سيفضي إليّ ببعض أسراره. دائماً يفعل ذلك، حتى بتّ أشتاق لمناماتي، وأحبّها. يأتي بخطىً واثقة، ينتصب أمامي كعمود غيم أبيض، يبتسم ويحكي:

(أنا يا منصور صاحب القصر الشرقيّ، ألا تعرف القصر الشرقيّ؟ الحدائق والبساتين على مدّ النظر، كلّها

ملكي، سأمنحك إيّاها يوماً ما، فلا تتعجّل. حجارة قصري من مرمر، وأبوابه من خشب نادر. أنا السيّد وأنا العبد، سيّد بينكم، وعبد أمام اللّه. (يا فاطر السموات والأرض)

يتركني مفعماً بالغبطة، ويغيب.

يقولون إنّه تزوّج نساءً أربع، ولم يُرزق بغلام، وكانت هذه القضيّة سبباً في زهده. ماتت زوجاته وبقي وحيداً. لم يكن هكذا، ربّما كان عمره المديد سبباً آخر في متاعبه، يُضاف إلى معاناته من فقدان الذريّة. ويقولون إنّه لا يتوقّف عن مناجاة ربّه، في النّهار وفي الليل يصلّي، حتّى إنّه حين ينام يستمرُّ في ابتهالاته، ينام جسده فقط، ويبقى قلبه متيقّظاً ومناجياً ربّه بأمور خاصّة به وحده. إنّه شديد الزّهد، فلا يرى في هذه الدّنيا الفانية سوى محطّة قصيرة سرعان ما تمضي، لذلك تراه يملؤها توحّداً مع ذاته، وطاعةً لخالقه.

لا أحد في هذه البلدة يعرف تاريخ ميلاده بدقّة، فهو قد تجاوز التّسعين بعدّة سنوات، وربّما تجاوز المئة. يختلف العجائز كثيراً حول عمره الحقيقيّ، ولا يجدون حلاً إلاّ بتصديق أكبرهم:

ـ كنت شابّاً حين ماتت زوجته الأخيرة. ما زلت أذكر حالته البائسة يوم ودّعها إلى مثواها الأخير. هو لم يقترب من القبر، بقي بعيداً يراقب المشهد وهي تهبط إلى أسفل بين أيدي اللاحدين.

بعض الظّرفاء يؤكّدون أنّه تزوّج من إحدى الجنيّات، وأنجبت له ذريّةً كثيرة العدد، لكنّه لا يرى أولاده الّذين ينوف عددهم عن الألف:

ـ (الجنّية كما تعرفون قد تلد كلّ يوم، فهي ليست مثل نسائنا نحن البشر، وكان هو شابّاً جميلاً، تشتهيه امرأته الجنّيّة كلّ يوم، فتحبل منه، ثمّ تلد بعد يومين أو ثلاثة. وسرعان ما تعود إليه مرّة أخرى. المسكين، لقد سحبت خيره من جسده، كما سحبت عقله من رأسه).

كم كان يمتعض حين يسمع هذا الكلام. كان يزيد من تمتماته، وقد يجاهر ببعضها، يغضب وينأى بعيداً حتّى حدود قصره الشّرقيّ.

في جهة الشّرق يتربّع القصر على تلّةٍ مرتفعة. بناءٌ طينيٌّ قديم، عمره مئات السّنين. يُروى أنّه كان قصراً لمملوكٍ عثمانيّ، هجره صاحبه في إحدى الحروب، ولم يعد. وعلى الرّغم من اعتقاد النّاس أنّ المملوك مات في الحرب لم يتجرّأ أهالي البلدة على وضع اليد عليه. ويُروى

أيضاً أنّ القصر ممتلئٌ بالكنوز، غير أنّه مرصود. يقوم على حراسته قبيلةٌ من الجنّ، وما الأصوات الغريبة الّتي تصدر ليلاً سوى عزيفها. ولأنّ بعضهم كان يعتقد أن الدّرويش صهر القبيلة ساكنة القصر، يسألونه أحياناً عن الأصوات الغريبة، يعبس، يرأف لضعف عقولهم، ثمّ يحزن ويغضب قبل أن يمضي.

أتساءل أحياناً عن حقيقة الدّرويش، لماذا يزورني في المنام ويؤكّد أنّه ملك القصر الشّرقيّ؟ وهل كانت حجارته من المرمر فعلاً، أم أنّها كما نراها ليست سوى طينٍ جاف؟ ولِمَ هذه القطيعة بينه وبين النّاس؟ أيكون أحدَ أحفاد المملوك العثمانيّ؟! ربّما. سأستخدم ذكائي وأحتال عليه، ربّما أسحب شيئاً من اعترافاته، ومن أين لي معرفة حقيقة تلك الاعترافات؟ سأغتنم محبّته لي، وأستخلص من كلماته النّادرة ما يُهدّئ هواجسي، فذلك الدّرويش غدا طلسماً، لا بُدّ أن أفكّ ما أستطيع من ألغازه.

في الفترة الأخيرة صار يحدّق في وجهي كثيراً، يعبس كأنّه غاضب عليّ، هو لم يعد واثقاً من صفاء نيّتي. لم أحسب حساباً لهذا الأمر. ظننته درويشاً بالفعل، لكنّه أذكى بكثير ممّا أعتقد، فقد قرأ نواياي، وعرف ما أفكّر به. لم يرتح للعبةٍ ما كان يظنّ أنّني ألعبها. صار

يتحاشى لقائي، يعاملني كما يعامل الآخرين، أقترب منه مبتسماً، فيعبس ويبتعد، أو يميل برأسه في إشارة لانشغاله عني. ندمت، أجل، ندمت لأنني فكّرت كما يفكّر الناس الآخرون. عليّ إذاً أن أعتذر، أن أقدّم له أسباباً مقنعة لانحراف نيّتي، وعليّ أيضاً أن أثبت وضوحي وصفائي أمامه، ذلك الصفاء الذي جعله يعاملني معاملة مختلفة، هل أستطيع ذلك؟ الدلائل كلها تشير إلى فقدان الثقة، وقد حزن كثيراً لذلك الفقدان. ربما كان يراني الوحيد في البلدة يُؤتمن جانبه، وقد خاب ظنه في لحظة مكر مني، اكتشفها بسهولة فآثر الابتعاد، لذلك لا أظنه يسامحني، فهو لا يسامح أحداً، دائماً ينتقم انتقاماً بسيطاً وهادئاً. وحين بدأت ألاحقه لأعتذر منه، كان يتجاهلني. حتى جملته اللازمة أصبح يرددها همساً، بالكاد أسمعها. كم اشتقت لقلقلتها الرائعة، ولسحر حروفها الآسر!!!

مرض الدرويش، وخفت أن يموت قبل أن يسامحني. صرت أزوره في بيته، ينظر إليّ بشفقة، وبعتب شديد يخرج مع حشرجاته الخشنة، يحاول أن يحكي، فلا يفعل، ربما لا يستطيع، وربما لا يريد، الأمر الذي جعلني مهموماً. لم أعد أدري هل هو راغب بالحديث، أم أنه كعادته يحاذر الكلام؟ أحكي أمامه كثيراً، أثير

حفيظته بحكايات قديمة، ربما أستفزّه، فيتكلم، تدور حدقتا عينيه الصغيرتين، وتضيئان، تتموّجان بدموع حرّى، ويبتلّ جفناه، فيبعد نظره عني، ويحشرج، أتراه يبكي؟!

في الصباح أفقت مهموماً، خرجت إلى الشارع، رأيت حشداً أمام بيته. شيء ما علق في حلقي، ربما غصّة أو حشرجة مكبوتة، لا أدري. بدأت أصوات الرجال تصلني:

ـ (طوال الليل وقبيلة الجنّ تساهره، ألم تسمعوا الأصوات ذاتها التي تخرج دائماً من القصر الشرقي؟)

وحين اقتربت خرجت الغصّة حشرجة خفيفة، سمعت الرجال يُقسمون أنهم حين أغمضوا عينيه شاهدوا على وجهه أجمل ابتسامة عرفتها وجوه البشر.

وجوه في الماء

بين السّنكرية و تلّة الهوى هذا النّهر الجاف، تواعدنا أنا وبرهان أن نلتقي هنا كل يوم، نمشي شرقاً بمحاذاة النّهر، كان سهلاً علينا أن نعرف الطّرف الغربيّ للنّهر هناك بحر، مساحة زرقاء واسعة، برهان يقول إنّ البحر بركةٌ كبيرةٌ ممتلئةٌ بالماء و الأسماك، وأقول إنّه كائنٌ رجراج يتخبّط في تلك البركة، ولا يستطيع الخروج .

الصعوبة كانت أن نعرف منبع النّهر من الجهة الشّرقيّة، دائماً أراهنه و دائماً أربح الرهان، أخترع اسم قرية ينبع النّهر منها فيتوقّف برهان مندهشاً، ثمّ يهزّ رأسه على قناعة وإعجاب.

وكان لا بدّ له بعد كلّ خسارة أن يسجّل انتصاراً، يدّعي أنّ عمّه مختار تلّة الهوى، أتظاهر باللامبالاة، وأقول إنّ عمّي أيضاً مختار السّنكريّة..نختلف كثيراً، نتعارك، وأنتصر فيلوذ إلى الاستسلام، وقد تدمع عيناه.

هناك في الأسفل بركة ماء، تركها النّهر قبل أن يجفّ. نزل برهان مسرعاً، صرخت برعب:

_ارجع يا برهان، فالنّهر قد يأتي في أيّة لحظة.

لا يهتمّ لخوفي، ولا لصراخي، هو دائماً هكذا، يهزّ يديه متحدّياً، يخبط كفّيه على مؤخّرته، يصرخ بأصواتٍ منكرةٍ، ويسخر من خلال حركات وجهه المستفزّة.

ـ ارجع يا مجنون، ولا تضطرّني لأن أقفز من هنا، وأعيدك بالقوّة.

يرفع نظره صوبي، يراني أتهيّأ للقفز، ينعقد لسانه على خوفٍ شديد وهو يقيس المسافة بيني و بينه. الحافّة مرتفعة جدّاً، ولا شكّ أنّ من يقفز عنها سينتهي جثّةً تهمد سريعاً، يبحلق برهان في وجهي ويشير إليّ لأهدأ، ثمّ يستدير ويعود صاعداً و مخذولاً.

إحساسٌ بالانتصار يجعلني أتأمّر عليه، وإحساسٌ بالضّعف والهزيمة يجعله تابعاً لي. يقول بانكسار:

ـ كنت سأصطاد بعض الأسماك، ألست جائعاً.؟

أجيبه معنّفاً:

ـ لا. لست جائعاً، إياك أن تعود إلى جنونك هذا مرّةً أخرى، أنت لا تعرف النّهر يا برهان حين يجيء متدفّقاً،

يدفع في طريقه كلّ شيء، وأنت أصغر الأشياء الّتي ستندفع، انتبه لنفسك يا صديقي.

* * *

يجلس قربي، أشفق عليه، أنظر إلى وجهه، لحيته طالت كثيراً، أمدّ يدي إلى لحيتي، أمسّدها، أحسّ بها أطول من لحية برهان. يعترض حين أجاهر:

- لا. أبداً، لحيتي هي الأطول.

أصرخ في وجهه:

- بل لحيتي.

يزمّ شفتيه، ويهرش في لحيته، تدور حدقتا عينيه على حديثٍ سيحكيه:

- ما بك يا برهان.؟

يجلس، ينكس رأسه بحزن:

- الكلبة، زوجة أخي .

أجلس قربه، أحترم حزنه الجليل، أصمت منتظراً، فيتابع:

- دائماً تحرّض أخي عليّ، يركلني، يشدني من لحيتي، ويشتم كثيراً، يا له من نذل هو لا يحترم أخاه

الكبير، أنا أخوه الأكبر، وهو يضربني و يوبخني دائماً، وزوجته الكلبة تبصق في وجهي. ملعون أبوها.

أتذكر أختي، فأغتاظ وأنهض، أنظر إلى الماء الراكد، هناك في الأسفل، أشرد، ويطول شرودي.

- بم تفكر؟

أهزّ رأسي متحسّراً:

- أترى تلك الصّورة يا برهان؟ أتعرف صاحبتها؟

يجول بنظره كالأبله:

- أيّة صورة؟ لا أرى شيئاً.

أغتاظ:

- لأنك أعمى.

يقترب منّي وهو يشدّ بنطاله المهترئ:

- سامحك اللّه. أين الصّورة؟ دلّني عليها.

أتناول حجراً كبيراً، وأقذفه إلى الماء:

- انظر، ها هي، هناك على محيط الدّائرة. ألا ترى الدّائرة؟

راح يحدّق، ينقل نظره متابعاً الدّوائر المائيّة، تخرج من مكان سقوط الحجر، ثمّ تبتعد وتتلاشى. يمطّ شفته السّفلى و يبحلق باندهاش:

- ما أجملها.!!!

يغمرني إحساسٌ بالرضا و الزهوّ:

- إنها خطيبتي.

- محظوظٌ أنت يا صديقي، أهنّئك على اختيارك.

أتابع تموّجات الماء باعتزاز، ألاحق صورة خطيبتي، أمشّط بنظراتي ضفائرها، أجدّلها وأعقدها إلى الخلف، أغمض عينيّ على فرح وانكسار.

زمان مضى، كنا سنتزوّج، لكنها ماتت. أهل السنكريّة حزنوا جميعاً وراحوا يواسونني، ثم تحوّلوا، فراحوا يشفقون، ثم يسخرون، يرسلون أولادهم إليّ، فأغنّي لهم وأرقص، يرمونني بالحجارة والشتائم.

زمان مضى يا برهان.

يتناول برهان حجراً ويقذفه:

- وهذه خطيبتي، ابنة مختار تلّة الهوى.

- ابنة عمّك؟

- لا.. لا. نعم ابنة عمّي، نعم. المختار هو عمّي. هل نسيت؟

- لا. لم أنس.

ورحنا نتابع صورة خطيبة برهان.

* * *

برهان يجوع دائماً.جوع قديم يدفعه إلى البحث عن شيء يأكله، حكى لي طويلاً عن طفولته، حرمانه وجوعه، أيّام الشّقاء السّود. أرامقه وهو ينهض، يبتعد عنّي ويغيب في دغل قريب، ليعود ببعض الأعشاب البريّة:

- يا مجنون يا برهان. هذا لا يؤكل.

- بل يؤكل. ما أطيبه!

وراح يحشو فمه بتلك الباقة الخضراء النديّة. منظره وهو يأكل أثار لديّ شهوة الطّعام. تناولت منه وحشوت فمي، تقززت:

- إنه مرّ يا برهان.

التفت إلي وهو يلوك بشهيّة:

- بل لذيذ. هندباء، ألا تعرف الهندباء يا صديقي؟ أليس في السّنكريّة هندباء؟

أجبت بسخرية:

- السنكريّة فيها كل شيء.

رمقني بنظرة ذات مغزىً، ابتعد عني لئلاّ تطاله كفّي:

- وهل فيها صبايا جميلات؟

فجأة تثور كرامة قديمة. تذكّرت خطيبتي التي ماتت، صاحبة الصورة الخارجة من الماء، ازداد الغيظ، وامتلأ رأسي قهراً، رغبت بأن أحمل برهان وأرميه من فوق الحافّة. نظرت حولي، رأيت الظلال تتطاول، رفعت نظري إلى السّماء، الشّمس تودّع الكون وهي مغرّبة، طغى عليّ حزن عميم، رغبت بالبكاء، نكست رأسي وتمنيت أن أبكي. اقترب برهان، وضع كفّه على كتفي معتذراً:

- لا تؤاخذني. كرمى للّه.

همست بغيظ و حدّة:

- اخرس يا برهان. اخرس.

* * *

نهضت مغتاظاً، ورحت أنفض التّراب عن ملابسي، فكّرت بأن أترك برهان، وأعود إلى السنكريّة، هممت بالمغادرة، فقطع عليّ الطريق، وقف أمامي رافعاً يديه ومعترضاً طريقي:

- واللّه لن تذهب قبل أن تسامحني.

- أنت حقير.

- أجل. أنا حقير و ابن كلب. سامحني أرجوك.

صمت المكان له قدسيّة مميّزة، لا يعرفها إلا من عزل نفسه في هذا الوادي وقت غروب الشمس. بدأ النقيق يتعالى، ويختلط بأصوات حشرات لا تسمع إلا في هذا الوقت، شعرت بمحبة تشمل الكائنات كلّها، ابتسمت وأنا أرمق برهان، اندفع صوبي وعانقني. انتقلت قدسيّة المكان إلى قلبينا فجعلتنا نخشع و نهدأ.

تخاصرنا، اقتربنا من الحافّة، انعكست الأشعّة المذهّبة على صفحة الماء السّاكن، وحشة عمّت المكان، تناولت حجراً وقذفته، كشفت الدّوائر وجه رجل طاعن في السنّ. قلت لبرهان:

ـ تلك صورة مختار تلّة الهوى.

وقذف برهان حجره بتحدٍ:

ـ وذاك مختار السنكريّة.

وراحت الأحجار تنقذف، وجوه كثيرة تظهر، تبتعد وتتلاشى، بعض الوجوه جميلة، وبعضها الآخر بشع:

ـ ذاك وجه أخيك يا برهان.

ـ أجل. انظر جيّداً، ذاك وجه زوجته، الكلبة.

لم تعجبني الوجوه التي يخرجها برهان:

ـ تعال نقتسم الماء يا برهان. أبعد وجوه جماعتك عن وجوه جماعتي، أبعد مختاركم وأخاك وزوجته عن أهل قريتي. أبعدهم يا برهان. أبعدهم.

نظر إليّ كالمخبول:

- حسناً سأبعدهم. وهل وجوه جماعتك أجمل؟

- بلى. أجمل.

- بل وجوهي هي الأجمل.

اقترحت أن نحتكم إلى الماء، وافق برهان على أن تكون الدوائر الأكبر هي صاحبة الوجوه الأجمل. تناولنا الحجارة، وبدأنا نقذفها بقوّة.

* * *

الدوائر تتّسع وتتسارع، والوجوه تخرج وتصطفّ، الحجارة تنقذف، والأيدي تشير للوجوه بالخروج والاصطفاف، شكّلت الوجوه في الأسفل فريقين متقابلين، توقّفت عن رمي الحجارة:

- يا مجنون يا برهان، أتريد إشعال حرب؟!

نهض وصاح بلا مبالاة:

- أنت بدأتها.

- بل أنت يا برهان.

ورحنا نتبادل الاتهامات و التهديد والصراخ، وقبل أن نتصارع تدفّق النّهر من الجهة الشّرقية. أصغينا بحذر، ثمّ

بخوف شديد، الخوف على مصير الوجوه المنتظرة إشارة البدء.

نظرت إلى وجه خطيبتي، كانت في المقدّمة، ابتسمت لي و أرسلت قبلةً في الهواء. رمقتُ فريق برهان، كانت الوجوه كئيبة وخائفة، بان وجه زوجة أخيه، ووجه أخيه الجبان، ثم انفرد وجه مختارهم المتحيّر، وتوارى وجه خطيبته الحزين. ازداد هدير النّهر، واقترب تدفّق مياهه، أشرنا إلى الفريقين بالعودة و الاختباء، فعادت الوجوه سريعاً إلى الماء، ثم هدأ الهدير.

الشمس اقتربت من الجبل الغربي، وامتدّت الظلال أكثر فأكثر، حتّى غطت المكان كلّه، ارتفع النقيق، ثم هدأ، امتلأ المكان برائحة المساء، وصمت الخواء.

شبكت يديّ أمام صدري ورحت أتذكّر الوجوه الجميلة القوية لفريقي، ووجه خطيبتي الرّائع، أحسست بطعم قبلتها. ثم مررت سريعاً إلى وجوه فريق برهان الضّعيفة، تمعّنت في وجه أخيه وزوجته، أحسست بتعاطف مع برهان، نظرت إليه نظرة إشفاق، فوجئت به يشبك يديه أمام صدره، ويمسح وجهي بنظرة الاشفاق ذاتها.

شيخ البلّورة

لا أدري كيف تذكّرته الآن، ربما هي الكأس التي أفرغت محتواها أكثر من مرّة في جوفي، تصاعد دبيبها متسللاً إلى الرأس، قادني إلى عوالم تتشابه كثيراً مع تلك التي حكى عنها صديقي تميم، رسم نسيجاً متشابكاً من الخيالات، ثم أدخل إليها شيخ بلدتهم، ابتسمت حين أسماه شيخ البلورة، وسألته عن هذه التسمية، فأجاب:

- هو رجل تقيّ، يحمل معه دائماً كرة زجاجيّة ملوّنة بأكثر من لون، ينظر من خلالها، فتتكشف أمامه حجب كثيرة.

لم أستطع إخفاء سخريتي وهو يشرح لي بإسهاب كيف تتكشف العوالم والأسرار أمام شيخ البلّورة، فيتنبأ بأشياء مجهولة وأمور لا بدّ أن تحصل، فهو يراها

أمـام عينـيه مـن خـلال بلّـورته المـباركة. وأكّـد تمـيم أن الناس يأتونه من مغارب الدنيا ومشارقها، ليكشف لهم ما تخبئه الأيام الآتية.

سـألته عمـا يتقاضـاه شـيخ الـبلّورة مقابـل تلـك الخدمات، فتعوّذ وأقسم أنه يفعل ذلك كله لوجه الله، لا يأخذ النقود إطلاقاً، لكن الزوّار يحرجونه حين يقدّمون له بعض الهدايا، فيقبلها على مضض. وغالباً ما يُفاجأ بها بعد رحيل الزوّار، يأتيه بها الخادم في آخر النهار. الفضول جعلني أستفسر عن تلك الهدايا، فأفصحَ عفيف عن بعضها، رمقته بعداء، وانداح سيل الشتائم.

السائل الأحمر الهادئ يغريني لأشرب أكثر، أيّة قوّة تلك الكامنة في الكأس؟! قوّة تفتح الأبواب لكشف الحجب والأستار.

جعلتُ أعبّ بنهمٍ لأحظى بأكبر قدر ممكن من قوّة الخمرة، أُصبح معها أكثر قدرة على التحليق، ورؤية خفايا الكون من فضاءات أطير إليها، ملوّنة وآسرة. تؤرجحني في أمداء منفتحة حتى آخرها، أُصبح خفيفاً كنسمة مرئية، وأشفّ، ليس كما يشفّ شيخ البلورة حين يغمض ويحلّق عبر بلّورته السحريّة، أو حين يقف على ساقٍ واحدة ويبحلق في الشمس المتوهّجة رافعاً يديه كطائر يتأهّب للانطلاق.

سألت تميم ساخراً:

ـ وهل طار شيخ البلّورة..؟

كنت جادّاً فلم ينتبه لسخريتي.

ـ لا أدري. لكن أحداً لم يؤكّد أنه طار. المعجزة يا صديقي أن تتبّؤاته دائماً تصدق.

طلبت من تميم أن يذكر لي بعض تنبؤاته التي صدقت، فراح يسرد بسرور، ورحت أستمع بقرف مرّة، وبملل مرّات.

من أين يأتي ذلك الشيخ بتلك الأحداث؟ تنبّأ بموت جاره، فمات، وبتدهور سيّارة مدير المدرسة، فحصل الحادث وتدهورت. تنبّأ لصبيّة شاكسته وشتمته على مرأى ومسمع الناس، قال إنها حين تتزوّج ستنجب عائلة من المسوخ.

ـ وهل أنجبت مسوخها يا تميم..؟

هزّ رأسه بحسرة:

ـ ومن يقبل أن يتزوّجها، ويحوّل نسله إلى مسوخ؟ بقيت عزباء، تلك المنحوسة تجاوزت الأربعين، ولم تحظ بعريس.

وفي جلسة أخرى، وقد استفاض تميم بحديثه عن شيخ البلّورة:

ـ اسمح لي يا صديقي أن أتنبأ بمصير شيخكم. سوف يأتي يوم وتتذكّر كلامي، سيموت أبشع ميتة، فإن لم تقتله تلك الصبيّة سيقتله غيرها. وقد تُفاجأ يا تميم بصورته في إحدى الجرائد وقد قُبِض عليه بتُهم لا تخطر على بال إبليس. صدّقني أن مصيره أسود، هكذا أراه، لأن رجلاً كشيخ البلّورة...

قاطعني تميم غاضباً وراح يتمتم، ثم قال بهدوء:

ـ يا رجل. اخش الله، فأنت تتحدّث عن مؤمن مكشوفة له الحجب كلها، خف ربّك، وغضب الشيخ.

قلت بحدّة:

ـ أنا لا أخاف أحداً يا تميم. أمّا الله فإنني أحبه جداً، ولن أفعل إلاّ ما يرضيه. الأجدر بشيخك أن يخاف، وبزوّاره أن يخافوا.

ولم أر تميم بعد تلك الجلسة.

حكيت لصفاء عن شيخ البلّورة، ضحكت كثيراً، وطالبتني بالذهاب إليه، علّه يتنبّأ لنا بمستقبل حبنا. رمقتها بسخرية:

ـ اذهبي وحدك.

تعلّقت بعنقي، وأبعدت وجهها تتملّى ملامحي:

ـ ما بك. أنا أمزح..؟

الآن. أنا أفكّر، لو ذهبنا إليه، ما الذي كان سيقوله؟ لا بدّ أن يتنبّأ لنا على قدر الهديّة التي نحملها، ولأننا لن نحمل له شيئاً، فهو لاشكّ سيرى لنا مصيراً أسود. هذا المصير وصلنا إليه دون تنبّؤات، صفاء تزوّجت من قريب لها، وأنا أقسمت أن أبقى كتلك الصبيّة التي شتمت شيخ البلّورة، ومنعت مسوخها من الانفلات.

شربت كثيراً هذه الليلة، رمقت الكأس بمودّة، فراح السائل الأحمر يترجرج، وشرعت رأسي تدور. كل الأشياء حولي تتراقص، الكأس والستارة والأريكة ورأسي، خيال صفاء وشتائم الصبيّة وقد أفلتت ذريّتها حول الشيخ. امتلأ جوّ الغرفة صخباً.

مضيت إلى آلة التسجيل لأفسح المجال لصوت فيروز أن يشاركني فرحي، أن يرقص معنا. جاء قمر (مشغرة)، توقّف خلف النافذة، وراح يضيء ويراقب، أمطرت الدنيا ثلجاً في ليل تمّوزي شديد الصفاء، آه يا صفاء..!! يا من جعلتِ الأصياف كلها باردة وكل القلوب قاسية.

الأخيلة والظلال تترامح حولي كأجنحة فراشات عملاقة، والكأس في يدي تتأرجح مع صوت فيروز. أتمايل

حزيناً حتى البكاء، تلمّست خدّي، لقد بالغت كثيراً في الشراب هذه الليلة، سأكتفي بهذا، ولن أتنبّأ، بدأت أخشى التنبّؤات. وضعت الكأس أمامي، استقرّت على الطاولة، وهدأ السائل الأحمر، وصفا. جعلتُ أحدّق إلى الكأس، ازداد دبيب كائنات صغيرة في أُذني، وتمايلت فراشات كثيرة ملوّنة أمامي، الكأس بدأت تتراقص، والسائل يترجرج.

لا أدري كيف خرجت صفاء من الكأس، في لحظة أغمضت عينيّ فيها، غافلتني وخرجت، نهضت مغتسلة بعطر مدوّخ، اتّكأت على حافّة الكأس، وصرخت: (خذني إليك)

كان شعرها ينقّط عطراً، وفستانها الزهريّ انكمش على قدّ خصرها، وصدرها نهد أكثر، جلست أمامي مبتسمة ومعاتبة.

تناولتُ الكأس، لثمتُ حوافّها، اقتربت صفاء وتعلّقت بعنقي.

ـ سنذهب يا حبيبتي إذا شئتِ، ولكن إيّاك أن تصدّقي ما تقوله البلّورة وشيخها، كلّ النبوءات تخرج من هنا، أما كنتِ نبوءة منذ لحظات..؟! تتكئ النبوءات على حوافّ الكأس ثم تطير.

ـ تقول النبوءة يا صفاء: إن شيخاً يحمل بلّورة، وينظر من خلالها فتتكشف أمامه الأسرار السوداء، يغزلها مصائب للناس، لابدّ أن يجتمع في غرفة نومه أبالسة الدّنيا جميعهم، ينامون معه حتى الصباح، فيفيق وقد احترق حتى ترمّد، تجمّعت أجزاؤه من جديد، ليتحوّل إلى بلّورة سوداء كبيرة بحجم شيخ هرم. وهناك نبوءة أخرى يا حبيبتي، تقول إن عاشقاً مخذولاً، تخرج من كأسه عصافير وفراشات ملوّنة، تجتمع في غرفته، تتراقص وتزقزق، ويأتي إليه صوت فيروز، لتخرج حبيبته من المواويل البريّة، فيراها عند كل مفترق (أووووف)، ويحضنها عند كل منعطف.

أوشك الصباح يطلع يا صفاء، اسمحي لي أن أضمّك قليلاً، قبل أن أنام، فتصدق النبوءات، وأنتقل معك إلى عوالمي الحلوة، وحين يأتي صديقي تميم، أجل..، لابدّ أن يأتي ليخبرني عن مصير شيخه، المصير الذي تنبّأت به، وسيعتذر تميم، سيتأسّف كثيراً، وربّما يراني بطريقة مختلفة، سأتابع تنبّؤاتي أمامه، فأخبره عن كأس تحوّلت بقدرة قادر إلى كون واسع، يتأرجح فيه كل مساء عاشق تحيط به العصافير ومواويل فيروز، عاشق صادق في تنبّؤاته، أجل.. هو صادق، أليس هو من تنبّأ بالمصير الأسود لشيخ البلورة؟

هي، ورحلة البحث

درجات قليلة، و أصل. سيُفتح لي باب المتعة. الرّجل الراصد في أسفل الدرج قال إنني محظوظ، نادرة هي الأوقات التي يصدف مرورها هنا، وأكّد أنّ حركة الأجرام السماويّة هي التي تحكم هذا المرور. كان ينظر إلى السماء باندهاش ويتمتم بأدعية صادقة، الصدق ينعكس على محيّاه وهو يبتسم بتأمل خالص، لا يعكّره سوى سؤال أحد الفضوليّين مثلي.

الباب منفتح على بهو واسع، حتّى لتظنّ أنّ المكان متّصل بالفضاء عبر بوّابة واسعة. مخروطيّة الشّكل، تنتهي بسماءٍ غائمة. على الباب الخشبيّ منحوتات لتماثيل وآلهة أسطوريّة، مدافن وأقواس، صور لحيوانات بعضها منقرض، وبعضها الآخر غريب الشّكل، ثيران بقرون طويلة ملتفّة إلى الخلف، ومتشابكة كالحبال، أقزامٌ بتيجانٍ ترصّعها حجارة ثمينة، أسوار لقلعة مهدّمة. وقفت

أمـام هـذا الـباب الغـريب ورحـت أتأمّـل التّماثـيل والـثّيران والأسـوار، عـالم ظنـنت أنّـه سـيكلّمني بأكـثـر مـن لغـة، تجهّـزت للحـديث قـبل أن أسمـع صـوتاً مـن الـدّاخل يـصرخ (اقترب يا أورانوس. اقترب أكثر).

تلفّـتّ حولـي، ثـمّ نظـرت إلى الـدّاخل عـبر الـبوّابة المخـروطيّة، كـان الدّخان يتعالى ويتكاثف من الجانبين، ينعقد في الأعلـى بتـشابك أيـضاً، ومـا زال الـصّوت يـتردّد، مـرّة بقـوّة، ومـرّة بهـدوء، لكـنّ صـاحبه لا يـني يحـثّ أورانـوس علـى الاقـتراب. ينقـشع الـدّخان، وتظهـر تماثـيل بشريّة بملابس طويلة تلامس القواعد الحجريّة، التّماثيل تمدّ أيديها حاملةً مباخر فارغة، وبحـركة واحدة تنحني جميعها إلى الأمام، وكأنّها مركّبة على مفاصل، تُصدر حين انحنائها صـريراً كـصرير أبـواب صـدئة. تقـدّم أحـد التّماثيل واستدار متوجّهاً صوبي، لم أُفاجأ بشيء، فأنـا أعـرف هـذا العـالم جيّداً، كأنّـي رأيته ذات يـوم، لكـنّ الذّاكـرة لا تـسعفني، ولا أهـتمّ كـثيراً بهـا، لا أسـتحثّها. وقف التّمثال أمامي:

ـ من أنت، وماذا تريد؟

ملامحه ليست غريبة، هي تشبه كثيراً ملامح الرّجل الرّاصد عند أسـفل الدّرج. ابتسمت بعدما عرفته، وظننته عرفني:

ـ أما عرفتني؟

ـ أنت صاحب المرأة اليثربيّة؟

ـ أجل. وجئت طامعاً برؤيتها، فهل لي بذلك؟

تابع التّمثال سيره باتّجاه الباب، انحنى قليلاً وصدر الصّرير، أمسك دفّتيّ الباب بكلتا يديه، وأغلقه بهدوء. غاب العالم الخارجيّ، ووجدت نفسي في مكان مختلف. عاد الرّجل التّمثال إلى مكانه، وانتصب مادّاً يديه وممسكاً مبخرته. بقيت وحيداً، لا أعرف ما عليّ فعله.

(اقترب أكثر يا أورانوس، فالزُّهرة لن تنتظر كثيراً)، عاد الصّوت بنغمةٍ مختلفة، آمرة هذه المرّة، ومحذّرة. يبدأ بخشونة وكأنّه صوت رجل، وينتهي بنعومة، ليصير صوت المرأة اليثربيّة الّتي أبحث عنها. قرونٌ مرّت على غيابها، لا هي تظهر ولا أنا أكفّ عن التّقصّي. أشياء كثيرة تجعل البحث عبثيّاً، كم من النّساء يتناثرن في الشّوارع والحدائق، وفي البيوت!! كدت أنسى ملامحها، لولا اهتمامي الشّديد برؤيتها، تلك المرأة الّتي اجتاحتني ذات يوم، عبرت معي الصّحراء حتّى آخر حبّة رمل. لم أكن في زمانٍ ما مُكتئباً كما أنا الآن، وربّما هذا الصّباح ازدادت كآبتي، لا لشيء إلاّ لأنني منّيتُ نفسي بلقائها، بعدما عجزت نساء الأرض جميعا عن الحلول محلّها.

من هو أورانوس هذا الّذي يخصّونه بالنّداء؟ أيكون الجرم السّماوي ذاته، أذكر أنّ الرّاصد أسفلَ الدّرج حدّثني عن حركة الأجرام، وعن ذاك الالتقاء النّادر بين جرمين، الصّوت يتحدّث عن الزّهرة أيضاً، تلك الّتي لن تنتظر أكثر، حركة كونيّة فريدة تُدار من هذا المكان، تمنّيت ألاّ يقترب أورانوس، لأسمع الصّوت ثانيةً، ذلك الصّوت الّذي ألِفته كثيراً وكدت أنساه مع مرور الزّمن. حاولت الدّخول أكثر في هذا المكان المخروطيّ، علّني ألمح صاحبة الصّوت، تقدّمت بضع خطوات، شعرت بأغصان باردة تلامس جبهتي، نظرت إلى فوق، رأيت شجرةً كبيرةً، كأنها صفصافة، لكنّ الصّفصاف لا يصيرُ إلى هذا الحجم، انحنيت وتقدّمت أكثر، غابت التماثيل البشريّة حاملة المباخر، وغاب الصّوت، وربّما غابت صاحبته. نظرت إلى السّماء، كانت حركة الكواكب عاديّة. لم أنتبه أنّ الوقت نهار، دهشةٌ راعشة هزّت بدني وأنا أحدّق إلى النّجوم البرّاقة في البعيد، رحت أبحث عن نجمين يتقاربان، سأعرف أورانوس من جبينه، وأعرف الزّهرة من لمعانها. من أين تولّدت لديّ الثّقة في هذه المعرفة؟ لا أدري.

الطّريق وعر وضيّق، شُجيرات حراجيّة على الجانبين تغطّي مساحات ممتدّة حتّى آخر ما يصل إليه النّظر. إلى

اليمين وادٍ سحيق وإلى اليسار كتف جبلٍ شاهق. وأنا بين الجبل والوادي أسير بطيئاً بسعادة عارمة، أترحّم على أيّام الصّحراء المرملة، وأُمعن النّظر بانتشاء إلى هذه الخُضرة الوافرة. في أسفل الوادي مساحة مستوية كقعر كوبٍ واسع، حركة لكائنات فاجأني مرآها، دقّقت النّظر محدّقاً، فاقترب القعر منّي، وبدأت ملامح الكائنات بالانكشاف، بشرٌ يتحلّقون بدبكةٍ أُتقنها، رغبت بالانضمام إليهم، ورحت أدرّب ساقيّ على القفز وخصري على الانحناء. فتيان وفتيات بأعمار متفاوتة يغنّون أغاني الأعراس، كيف أنسى تلك الأغاني، وأنا منذ زمان لا أذكره ألوب باحثاً عنها، تلك الّتي أخصّها برقصاتي وتخصّني بغنائها، أبحث عنها منذ زمانٍ قديم، أيّام كانت يثرب تعرض أطلالها في وجهي، فيصفعني الغياب.

جلست فوق صخرة قريبة من جرف هارٍ، يتداعى، فتسقط الحجارة عن ضفّتيه مسرعةً إلى أسفل الوادي. غاب الفتية، وامتلأ الوادي بالحجارة حتّى مستوى جلوسي، امتدّت مساحة حجريّة جرداء على مدّ النّظر، نهضت باحثاً عن مكان أكثر أماناً، رغبت بالعودة، وتذكّرت الفضاء المخروطيّ، وصفّي التّماثيل، وصاحبة الصّوت المطالب باقتراب أورانوس. تذكّرت الرّجل إيّاه، أعجبني تأمّله الهادئ وهو يرصد أجراماً لا يراها، أنا على

يقينٍ من ذلك، هو لا يرى، ولا يسمع، ما هو سِوى تمثال، فكيف لتمثال أن يرى ويسمع؟ ولو تهيّأ لي ألف مرّة بأنّ التماثيل تنحني وتحمل المباخر لن أصدّق، كلّها تهيّؤات لا أكثر. وبعد قليل سأعود إلى بحثي من جديد، سأبدأ طريقاً آخر، لا تقود إلى متاهة سوريالّية، وإذا بقي الأمر كما هو الآن سأجتثّ خيوط الذّاكرة خيطاً خيطاً، وأبحث عن المرأة اليثربيّة في نسيج الخيوط.

ابن يقظان اكتشف تجويفاً في قلب غزالته، فتيقّن أنّ الرّوح كانت تسكن التّجويف، ففرغ مكانها بعد الموت، كذلك عليَّ أن أتيقّن أنّ في صحراء الذّاكرة تجاويف كثيرة مات أصحابها، يثربيّون وغير يثربيّين، وربّما كان لتلك التّجاويف الفضل الأكبر في عدم استواء أدمغتنا، نحن الباحثين عن أحبّة غابوا، نرفض غيابهم، فنلوذ إلى البحث. وهذا الصّراخ الّذي يستفزّني ويحثّني على النّهوض، يثربيّ الهويّة.

(اقترب يا أورانوس).

أأكون أنا المقصود؟! من أين لي أن أكون أورانوس؟ أنا الفتى الصّحراويّ الّذي لفحه الرّمل، وعزيف الرّيح علّمه الغناء، كيف لي أن أنهض وما زال الجدب يحيط بي. ربّما يتغيّر أشخاص الحكايات، فتنقلب الغزالة ذئبة،

ويصير الفتى الأسطوريّ كاهناً، لكنّ حكايتي تتجدّد كلّ يوم، الشّخصيّات هي ذاتُها والأحداث ذاتها. فالرّجل الرّاصد ما زال هناك أسفل الدّرج، ربّما نبت له شاربان، وربّما تقوّسا كذيلي عقربين، لكنّه ما زال يحدّق إلى السّماء متأمّلاً حركة متكرّرة، ولم يزل الصّوت اليثربيّ ينادي راغباً بالاقتراب، وما زلت أبحث عبثاً عن فتاتي الضّائعة، أجوب الأطلال حاملاً نايي، ومنشداً قصائدي الرّاغبة ببابٍ تعلّق عليه، وبصبيّةٍ تدغدغها مخارج الحروف، فتجعلها تترك تاريخها وتأتي مخترقةً فانتازيا غريبة، وحالمة بلقاء شاعرٍ غريبٍ كقصائده

بلازما

لكزني بكوعه:

ـ ابتعد.

لا أستطيع نكران رغبتي في الابتعاد، فالمشهد أمامي لا يسرّ أحداً، هكذا اعتقدت. فمن أين تأتي الرّغبة لهؤلاء النّاس بالتّحديق؟ أهو الفضول، أم أنّ تكوينهم مختلف؟ المرأة الشّهيّة الثّغر والوجنتين، والصّافية العينين، تقف في وسط البركة الإسمنتيّة، ترفع وجهها وتقهقه، يقترب منها أشخاص غير محدّدي الملامح، فلا هم ذكور، ولا هم إناث، كائنات مخنّثة تحمل أباريق تحوي سائلاً لزجاً، يميل لونه إلى الاصفرار، يرفعون أباريقهم فوق رأس المرأة، ويدلقون، تزداد ضحكاتها، وينساب السّائل الأصفر على جسدها، فتبدأ بالارتجاف، ويبدأ جسدها بالتّحلّل. يصفّق الرّجال حولها، وتعلو زغاريد نسائيّة من مكان عميق، كأنّهنّ يزغردن في أسفل

بركة لا قرار لها. أبتعد أكثر، ويثيرني الفضول إلى إعادة النّظر، لا أستطيع تحمُّل منظر جسد أنثوي رائع الجمال وهو يذوب شيئاً فشيئاً، تضمر الوجنتان وتجفّ الشّفتان، والنّظرات تترمّد، ثمّ يغيب كلّ شيء وتمتلئ البركة.

الرّجل الّذي لكزني بكوعه عاد إليّ، خاصرني، وقدّم إليّ زجاجة مُلئ نصفها بسائلٍ غريب:

ـ أتشرب؟

وقبل أن أستفسر عمّا يحمل، تابع كلامه المُقتضب:

ـ شيء من عصير المرأة.

المرأة الّتي ذابت وسط البركة، توزّعت في قوارير، الـتفتُّ إلى الـرّجل، لم أره، مـنذ متـى غـاب؟ لا أدري، لكنّني كنت شديد الرّغبة بالتّقيّؤ، حاولت فلم أستطع. وكمضروبٍ على رأسه شعرت بدوار جعلني أجلس فوق صخرة ناتئة. أجلت النّظر حولي، غابت البركة، وحلّ محلّها بستان جميل بأشجار مزهرة. والضّفادع الّتي كانت تتقافز على حواف البركة صارت عصافير خضراء لا تزقزق، بقيت تنقّ بصوت مزعج.

الـرّجال حاملـو القوارير، يعـبرون أمامـي غـير مكترثـين، يتقافـزون كالوعـول يـرفعون قواريـرهم ويشربون، قفـزاتهم تتباعد، وكـأنّهم يهمّون بالطّيران،

أراقبهم وقد فقدت رغبتي بالإقياء، وتملّكني هاجس غريب، سينتهي هذا الزّمن القصير، بل لا بُدّ أن ينتهي، وتعود الأشياء كما كانت، هي لحظة وستعبر، قليل من الصّبر فقط يلزمني، فيعود وجهي إليّ، تعود حواسّي كلّها. وقد يعود جسد المرأة الشّهيّة، فأُشبع نظري منها.

درجات رخاميّة تقود إلى الأسفل، وقوّة لا أستطيع مقاومتها كأنّها ريح تدفعني إلى النّزول، تمسّكت بالصّخرة النّاتئة فتحوّلت إلى عجوز شمطاء، شدّتني صوبها، فهربت صارخاً دون صوت، وتلقّفني سرداب مظلم عارضاً أمامي رخامه المثير، كنت أسمع نداء العجوز وأنا أسرع هرولتي هابطاً إلى حيث امتدّت حراج على مدّ النّظر، أغصان الرّيحان تتمايل بنَضارة مشتعلة. تذكّرت جدّي البرّي، كنّا نسمّيه برّياً لأنّه لا يأتي إلى البيت إلاّ لينام، يقضي نهاره في قطع أغصان الرّيحان، يقشّرها ليصنع منها السّلال، ثمّ يوزّعها على الجيران والأصحاب.

جدّي البرّي مات منذ سنوات، لكنّني مازلت أحتفظ بملامحه، وبرائحته المفعمة بالطّيب، بحثت عنه كثيراً بين صانعي السّلال، لم أره، أو أنّني لم أعرفه، فجميعهم متشابهون، يحملون الملامح ذاتها، والرّائحة ذاتها، بدَوا كأنّهم يعرفونني، راحوا يتودّدون إليّ، أكوامٌ من السّلال

تجمّعت على ضفّتي نهرٍ رقراق، حكيت لهم عن المرأة والبركة، عن الرّجال والقوارير، صمتوا جميعاً، راحوا يتبادلون نظرات محيّرة، أتملّى وجوههم جيّداً، لا شكّ أنّ جدّي بينهم، ربّما أستطيع التّعرّف إليه، لكنّهم بعد حديثي إليهم التزموا الصّمت، وراحوا يُتابعون أعمالهم بحياد.

اجتاحتني رغبة بالنّوم، كنت نعسان فنمت. زارني خيال جدّي مُعاتباً:

ـ كيف تُكلّمنا بهذه الطّريقة؟ لقد دنّست المكان بحديثك.

خفت كثيراً أن يغضب عليّ، فاعتذرت، ولا أدري إن كان قد قبل اعتذاري لأنّه غافلني ومضى، ذهب كما جاء، خيالاً، بل غيمة من عطر الآس. تركني وحيداً، ناديت، وما زلت أنادي حتّى أتى الرّجل ذاته. لكزني:

ـ ابتعد.

لم أكن راغباً بالابتعاد، لكنّني انصعت لأمره، جلس مكاني، فغابت الحراج جميعها، جفّ النّهر الرّقراق، وامتلأ بالبرك الآسنة. نساءٌ كثيرات عاريات في وسط البرك، والكائنات المخنّثة تتكاثر بشكلٍ مريع. الرّجال يصطفّون بانتظام، في طوابير لا نهاية لأرتالها،

يحملـون قواريـرهم الفارغـة، وينتظـرون سمـاع الـزّغاريد، يترقّـبون الأباريـق الّـتي سـتُرفع بعـد لحظـات فـوق رؤوس النّساء العاريـات، وتُدلـق، ستضحك النّساء كـثيراً وهُـنّ يتحلّلن في البرك الآسنة.

أغمضتُ عينيّ، وقُلت أعود صعوداً من السّرداب ذاته. بحـثت كـثيراً عنه، وصلت إلى سمعـي ضـحكات العجـوز الـشّمطاء، وقفـت متحيّـراً بـين الـصّعود والـبقاء، صـعودٌ يُبعدنـي عـن هـذا العـالم الممتلئ باللـزوجة والقـرف، وبقـاءٌ يجعلني في منأى عن لقاء العجوز.

بحـثت كـثيراً عن حلٍّ آخر، حاولت استحضار جدّي، علّه يعـود، فتّشت عن خياله، وكلّما أشرف على الحضور يـرتفع النّقـيق وتعلـو الـزّغاريد، فيغيب. قـرّرت أن أعـدو في مـوازاة النّهـر الّـذي جـفّ، فعـدوت غـير مُـبالٍ بالـصّرخات والـنّداءات الّـتي تعالـت ورائـي تطالـبني بالعـودة، يحـتلّني هاجس وحيد، سوف يتغيّر هذا العالم الغريب، ورجوت ألاّ أعدو طويلاً قبل أن يعبق الرّيحان في وجهي.

الصّدى

من يصدّقني إذا حكيت؟ ومن يبرّئني من تهمة الجنون؟ أنا صادق وعاقل، لكن ما يحصل لي يثير الغرابة. هذا الجدار كتلة صمّاء، تماماً ككلّ الجدران، ووراءه فضاء واسع وبعيد، هذا ما أنا متيقّن منه، فحين أزيح السّتارة نهاراً أشعر أنّني جالس في طائرة، ولكي أرى الشّوارع وأسطح البنايات عليّ أن أخفض نظري قليلاً، كمن يشرف على وادٍ عميق من قمّة شاهقة.

عدّة أيّام أمضيتها في هذه المدينة، وعدّة ليالٍ قضيتها في غرفتي هذه، قلّة النّوم تجعلني مرهقاً، فلا أستطيع مجاراة زملائي في التّمتّع بمشاهدة الآثار والمتاحف. زملائي أعضاء الوفد لاحظوا الإرهاق على ملامحي، وفي حركاتي، وحين استفسروا علّلت ذلك باختلاف الجوّ المحيط، لكن الأمر ليس كذلك. أنا مجبر على هذا الادّعاء لئلاّ أُتّهم، فلا أجد من يبرّئني، ولا من يصدّقني.

كم حلمت بهذه الرّحلة!! وكم رتّبت حواسي جميعها لقضاء ليالٍ ملوّنة في هذه المدينة الجميلة!! جميلة بأبنيتها، بشوارعها وحدائقها، بسهراتها ونسائها. جمالٌ حرمني من تذوّقه هذا الجدار، قلب مخططاتي جميعها رأساً على عقب، أدار برامجي الخاصة مئة و ثمانين درجة. لم أعد أفكر بالسهر، ولا بالنساء، وجلّ ما صرت أرجوه هو أن أعرف السرّ.

ما إن تشير الساعة إلى الحادية عشرة ليلاً حتى تبدأ سيمفونية غريبة، مفرداتها غناء وصراخ، أصوات مآذن، صفير رياح في أديرة مهجورة، هزيم رعد وثغاء خراف صغيرة، خرير جداول ربيعية، وشتائم جدّي التي لا تنتهي. هذه الأصوات جميعها تخرج من هنا. حاولت تحديد المكان بدائرة صغيرة، لكنها دائماً تغافلني وتنتقل من مكان إلى آخر، تنتشر على كامل مساحة الجدار. الأصوات تساهرني ساعتين أو ثلاثاً، ينهكني معها التوتر ومحاولة الاكتشاف، فأنام كالقتيل، حتى الأحلام حُرمت منها، ربما كانت ستشكل تعويضاً عمّا افتقدته، كم توقعت أن أحلم بلقاء تلك الفتاة، أو تلك، أو... لكنّ الأصوات تصادر لحظات ليلي الطويل.

ما إن أغفو حتى أستيقظ . أنا مجبر على الاستيقاظ عند السابعة صباحاً، برنامج الرحلة اليومي يبدأ في السابعة والنصف، ويستمر حتى السادسة مساءً. نعود بعدها إلى سهرة العشاء التي تستمر حتى العاشرة ليلاً، ثم يأتي السهر والأصوات المزعجة. حتى ساعات النهار لم أعد أستمتع بها. تلاحقني السيمفونية أينما ذهبت، في المتاحف وفي المكتبات، بين المعالم الأثريّة والحدائق الممتدّة بعناية فائقة. أضع الخطط في النهار، وأتحايل لتنفيذها ليلاً، فلا الأصوات تهدأ، ولا أنا أعرف سرّها.

نقطة البداية كانت من ملاحظتي الثانية، حين زادت الأصوات صوتاً جديداً، في كلّ يوم هناك صوت جديد. بالأمس جاء صوت جدّي، تذكّرته حين يصرخ بنا، كنّا أطفالاً حين كان يصرخ، توقّف بعدما كبرنا، أو أن حدّة الصراخ خفّت، ثم غاب صوته نهائياً حين مات. ما الّذي يُحضره إلى هنا؟ الآن يجيء صوت طبل يُقرع بتواتر، قوياً حيناً، وضعيفاً حيناً آخر، يقطعه حين يضعف أصوات أطفال يبكون، أصوات حادة تثقب الأذن، وتتغلغل بعيداً حتى النخاع. ما زلت لا أحتمل رؤية طفل يبكي، تحرقني دموع الأطفال. وشهقاتهم تترك غصّة في القلب.

قبل الزواج كنّا نحلم أن نلتقي بأيّة امرأة، نفشي – نحن المراهقين ـ رغباتنا مصحوبة بمزاح ثقيل، واتهامات يوجّهها بعضنا إلى بعضنا الآخر. وبعد الزواج كان من الطبيعيّ أن نلتزم بما أمرنا به مجتمعنا بعاداته وتقاليده. نتجرّأ أحياناً ونخالف بعض الوصايا، لكن الأمر يبقى سراً، حتى ذاك الإفشاء بين الأصدقاء لم يعد مسموحاً. اختلفت الأحلام والأمنيات، تعددت وازدادت فلم نعد نقبل بأية امرأة، أصبحنا نضع شروطاً ومواصفات لمن نرغب بلقائها. وقبيل قدومنا إلى هذه المدينة الأوربية تفتّقت الرغبات والأحلام جميعها، ففتيات أوربّة شيء آخر، مختلف ومثير، قرّرت أن أجرّب هذا المختلف و المثير، وحين صار الأمر متاحاً وقف هذا الجدار بوجهي، فلا الأصوات تهدأ، ولا الآخر المختلف يستطيع القدوم إلى الذّهن فما إن أفكّر بالتواصل حتى تقرع الطبول، ويتعالى الصراخ والثغاء والبكاء، فتنام الرغبات جميعها آملةً بليل أقلّ ضجيجاً.

سيسألني الأهل و الأصدقاء حين أعود عن هذه الزيارة، وسأحكي لهم، كيف ستختلط الأجوبة؟ لا أدري، سأناور وأكذب، سأتظاهر بسعادة لم أعرفها، سأختلق أحداثاً وطرائف، ولن أترك امرأة أعجبتني في هذه المدينة إلا وأقول إنني نمت معها، سأراقب نظرات الغيرة على الوجوه، وحين أختلي بنفسي سأجترّ هزائمي.

اقترب موعد الإيّاب فقد انتهت مدّة الزيارة. في الصباح سنغادر هذه المدينة، وستنتهي هذه الرحلة التي تحوّلت من حلم جميل إلى كابوس رافقني كل هذه الأيام. بدأت أجمع أشيائي، أرتّب الهدايا بحقائبها، هدايا للأهل وللأصدقاء و الأقارب ، ربما تجعلهم يرأفون بي، ويقلّلون من أسئلتهم. تحف ولوحات، فساتين للزوجة وقمصان للأولاد، عطور فاخرة سأقسمها بين زوجتي ونساءٍ أخريات أستدرّ بها عشقهنّ. وضعت الحقائب قرب الباب، وعدت إلى السّرير، استلقيت منشغل الفكر، وسعيداً. كدت أنسى الجدار، لكنه واجهني بضراوةٍ وتحدٍ. أغمضت عينيّ إغماضة الخاسر، واستسلمت استسلام المنكسر.

الساعة تجاوزت الواحدة ليلاً ، وما إن أسبلت جفنيّ لأغفو حتّى بدأت الصّور تخرج من الحائط ذاته، صورٌ لأصحاب الأصوات شكّلت حلقة حول السّرير، وراحت ترقص بسخرية، هي حفلة الوداع، الألسنة تمتدّ، والعيون تتغامز، صغار ماعز تهزّ ذيولها وتتقافز حولي، شبّان وشابّات، غجريّون وغجريّات، الجميع يرقص، تدقّ المزاهر والدّفوف. جدّي بلباسه الكتّانيّ الأزرق اخترق الجميع حتّى وصل إليّ، مدّ عصاه ورفع اللحاف عنّي:

ـ انهض أيّها العاق.

لم أميّز، أنهضت أم بقيت مستلقياً، لكنّني رأيت الشبّان الغجريّين يسندون طبولهم إلى الحائط، ويجلسون عليها بتناسقٍ، والغجريّات بدأن يتعرّين أمامي، ظهرت الأذرع والأكتاف. الصّدور النّاهدة سرعان ما ضمرت وهنّ يتابعن حفلة التّعرّي. هبط نظري مع هبوط الفساتين في رغبةٍ مكبوتة لعينين تحفّزتا في لحظةٍ تجاوزت فيها الفساتين حدوداً مشتهاة . فجأة تتيبّس الأجساد، تتحوّل إلى جذوع أشجارٍ يابسة، تخضرّ تارةً وتورق، ثمّ تعود إلى يباسها. تململت في الفراش، أحسست بصداعٍ شديد، يكاد يفجّر الرّأس، فتحت عينيّ، كان جرس الهاتف يواصل رنينه، اتّكأت ونهضت، رفعت السّماعة، رئيس الوفد يحثّني على الخروج، يبدو أنّني تأخّرت، السّاعة تجاوزت السّابعة، نزلت من السّرير وسمعت قرعاً على الباب، فتحته، كان زملائي حائرين، وبعد عتابٍ عابر ساعدوني على حمل حقائبي، وهبطنا مسرعين.

في الطّائرة رحت أبحث عن جدار يحمل إليّ سيمفونيّة رافقتني طوال هذه الرّحلة، لم أرَ إلاّ الرّؤوس المتّكئة والعيون المغمضة، وعبر الزّجاج كانت المدينة تتراجع في الأسفل بهدوء، الشّوارع والحدائق والمتاحف، كلّ الأشياء

تتهادى إلى الوراء. رحت أتخيّل بشراً ينتظرونني، زوجة وأطفالاً، عجائز وأصدقاء. أهلي جميعهم يقفون أمام صالة الانتظار في مطارٍ شرقيّ يعرف بدقّة كيف يودّع، وكيف يستقبل.

فانتازيا الجنون. . . واطوت

ناولني كرسيّاً وقال:

ـ اجلس هنا، وانتظرني.

رأيته يسجّل اسمي على كتاب سميك، قلب عدّة صفحات، ثنى ورقة، ثم أطبق الكتاب، ضمّه تحت إبطه، نظر حوله مستطلعاً بحياد، وغاب في مدخل بناية عالية. رفعت نظري إلى الشرفات الرخامية اللامعة، ثم تلفتّ حولي، رأيت البواب يرشّ حديقة قريبة ضمن حوش البناية الواسع. البواب يغني أغنية أعرف كلماتها، شيء ما شدّني إليه، رغبت بمحادثته، التفت إليّ بحدّة:

ـ قلت لك انتظر، ما بك..؟ ألا تستطيع الانتظار.

هو الرجل ذاته الذي سجّل اسمي في الكتاب السميك، أين ذهب، ومتى عاد؟ عرفت من خلال نظراته وكلماته المختصرة أنني مطالَب بالانتظار والهدوء، وألاّ

أثير أيّة فوضى. استغربت، المكان خالٍ، لا يشاركني فيه سوى هذا البوّاب المنهمك بسقاية الحديقة.

أتذكّر، حين أخذ الكتاب ومضى، كان يرتدي لباساً أبيض، لماذا بدّل بملابسه هذا المعطف الأزرق المخطّط؟ حاولت أن أستفسر منه، لكنّ نظرة قاسية جعلتني أهدأ وأصمت.

أسندت ظهري إلى الحائط، أغمضت عينيّ منتظراً أمراً أجهله، جاءت القرى والبلدات البعيدة إليّ، رأيت دارنا الواسعة، رأيت زوجتي وأطفالي ينتظرون عودتي، حالمين بأشياء وهدايا تفرحهم، زوجتي تعتني بمشاتل الورد، تنفض الغبار عن الأصص الفارغة، وتهيّئها. والدتي تحمل عكّازها وتجلس في زاوية بعيدة، وتراقب.

فتحت عينيّ، رأيت المكان مختلفاً، كل شيء تغيّر. البناية الرخامية غابت، والحديقة تحوّلت إلى غابة كثيفة. بحثت عن البوّاب، لم أجد أحداً، سرى دبيب في رأسي، جعلني أغمض ثانية، وأنتظر.

خوف، قلق ورعب، توتّرت أعصابي، جعلت أفتح عينيّ وأغمضهما، أدير نظري في الجهات كلّها، علّي أقع على أيّ شيءٍ يبعد هذه الغرابة. أذكر، كنت في طريقي إلى المدينة، ولكن.. أيّة مدينة؟

اقتادني الرجل الأبيض إلى هنا، الرجل الأبيض الذي تحوّل إلى بوّاب بناية غابت، وغاب بوّابها. أذكر أنني قلت له:

ـ أنا على عجلة من أمري، سأحمل بعض الحاجات، وأعود.

ابتسم و قال:

ـ حسناً. اجلس هنا، وانتظرني.

رغبت بالوقوف، والسير بحثاً عن البوّاب، ربّما يريحني من تساؤلاتي، ما الذي جرى لي؟ ومن هو الرجل؟ ولماذا يتبدّل أو يتحوّل، ثمّ يغيب؟ نهضت، ثم خطوت، اكتشفت أنني حافٍ، نظرت إلى قدميّ، بحثت عن الحذاء، امتلأت بالدهشة، ما الذي يجري..؟! فوجئت بالمكان وقد امتلأ بالناس، متى جاؤوا؟ وهذه المقاعد الفارغة لمن..؟عدت إلى مقعدي، وجلست، رأيت جاري يلتفت إليّ مبتسماً، سألته:

ـ أين نحن؟

ـ إننا ننتظر، كما ترى.

وراح يتمتم بكثير من الخشوع. وأمامنا على بعد أمتار عدّة، اصطفّ عدد من الجنود يقودهم فارس، يلقي تعليماته وأوامره، فينفّذون بحركات منتظمة، ثم

يبتعدون، يرتفع غبار كثيف من خطواتهم، ثم ينقشع ويغيب وراءهم.

عدت إلى جاري مستفسراً، فوجئت به وقد شاخ، لحيته طالت وابيضّت، وما زال يتمتم بخشوع. نظر إليّ، وسبقني بالسؤال:

- ما بك..؟

- أيمكن أن تشرح لي..؟

هزّ رأسه نافياً، وابتسامة ساخرة بين شفتيه:

- سيعود البوّاب بعد قليل، اسأله إن شئت.

عاد الدبيب إلى رأسي. أجل... سأسأل البوّاب، هو الوحيد الذي يمتلك الجواب. ولكن، أيّ بوّاب..؟ وأيّة بناية..؟ أيّة حديقة كان يسقي..؟

نهضت أتجوّل بين هؤلاء الناس، كلّهم ساهون، بعضهم نائمون، وبعضهم يغسلون وجوههم ويتجهّزون ليوم جديد.

كنت أظنّ أنني أسألهم، لكنّ أحداً لم يجبني، يتمتمون دون أصوات، ويؤدّون طقوسهم اليوميّة، وكأن لا شيئ غريباً البتة.

عاد الجنود ثانية بخطوات منتظمة، يتقدّمهم الفارس ذاته، يلقي أوامره بصرامة، يمرّون أمامنا، يجتازوننا، ويثور الغبار مرّة أخرى من خطواتهم، ثم يتبعهم ويتلاشى.

الكراسي الفارغة سرعان ما تمتلئ.

أقبل البوّاب مسرعاً، يعرج بخطىً متواترة، أبعدت نظري عنه، فقد أزعجني منظره، أخافني إلى حدّ الرعب. وجهه ممتلئ بالتجاويف، في كل تجويف عين حمراء، وعلى رأسه نبت قرنان طويلان كقرنيّ معز. وقف أمامنا منتصباً، رفع عصاه عبس مشيراً إلينا:

ـ نظّموا صفوفكم أيّها الاخوة.

لم أعد أفاجأ بالأمكنة التي تتغيّر باستمرار، ولا بالأطفال الذين يكبرون ويشيخون أمام عينيّ، كل ذلك تعوّدت عليه.لكن البوّاب الذي تغيّرت هيئته بالكامل أثار حيرتي. رأيته يشير بالعصا، فتتحرّك الصفوف وتنتظم. تركنا ومضى صوب منصّة قريبة، اعتلاها، وأدار لنا ظهره. بدا مقوّساً كظهر حرباء، ونبتت له كتلة كالسنام، انحنى أمام باب واطئ له شكل دائريّ، ثم غاب في مساحة مظلمة.

رغبت باللحاق به، بدخول الباب الدائريّ المظلم، واستكشاف عالم غريب، هذه الرغبة كانت ملتصقة بي

فيما مضى، أيّام كان لي بيت واسع، وزوجة تنتظر أشياء سأحملها إليها، وأطفال ينامون حالمين بهدايا الصباح، وأم عجوز تراقب مشاتل الورد، وباب الدار المفتوح، وتنتظر خبراً عني. كانت تحذّرني دائماً، أذكر ذلك، وكنت أطمئنها، فتصدّق كل ما أقوله من أكاذيب. آه يا أمي، يا صاحبة الوجه الطيّب!!!

ثبتّ نظري إلى البناء الحجريّ خلف المنصّة، كأنه بناء لدير قديم، أقواسه الحجريّة الواطئة تكشف انتماءه لعصر موغل في القدم، بوابات دائريّة وأقواس فوق البوابات، ونوافذ ضيّقة معتمة، ومفتوحة على عالم مجهول. رحت أتذكّر محاولاً معرفة أمور غابت عن ذاكرتي، متى أتيتُ؟ وإلى أين؟ لا أذكر إلاّ الزوجة وقد ودّعتني بكثير من الحزن والدموع، والأم المنتظرة بترقّب لن تتخلى عنه، والأطفال، والدار الواسعة، ومشاتل الورد.

من الباب الدائريّ خرج جنديّان مدجّجان، وقفا فوق المنصّة، ثم تبعهما البوّاب ذو السنام وبيده رزمة أوراق، بدأ يقرأ بصوت عال لائحة الأسماء، ويشير إلى جهات عدّة. تفرّق الحشد حولي، وراحوا يتجمّعون زمراً زمراً في أمكنة متجاورة. أنهى البوّاب قراءة الأسماء، اقترب من الجنديّين، وقف في الوسط، رفع وجهه إلى السماء وراح

يتمتم، ثم ركع وأحنى رأسه. استلّ أحد الجنديّين سيفاً مذهبّاً، ضرب عنق البوّاب، فتدحرج الرأس وراح يضحك، وينشد أناشيد غير مفهومة، استدار الجنديّ وغاب في الباب الدائريّ المظلم، وتبعه رفيقه الآخر.

كنت في زمرة مع جاري ذاته، ذي اللّحية البيضاء نهض واقترب منّي، تأبط ذراعي، ورحنا نتمشّى.

كثيرة كانت القبور التي مررنا بها، الشواهد ترتفع قديمةً متآكلة، تحمل كتابات لم نستطع ترجمتها، وعلى جدار مرتفع يمتدّ بعيداً، كأنه بلا نهاية، نُقشت رسوم وزخارف لحيوانات وطيور اسطوريّة. تذكّرتُ الكتب التي تغصّ بها مكتبتنا في الدار الريفيّة، أذكر أنني قرأت كتابات تشرح أشياء كهذه المرسومة فوق الجدار، والمكتوبة على شواهد القبور، قلت ذلك لصديقي، وكنت سأشرح له أكثر، لكنّه التفت إليّ وقال بترجٍ:

- لقد توغّلنا كثيراً، دعنا نرجع.

حين استدرنا لنعود، أحاط بنا جنود اصطفّوا على شكل دائرة، وراحوا يخبطون الأرض باستمرار، ارتفع غبار كثيف، وعلت أصوات الجنود، وقرقعة البنادق والسيوف. حاولت إغماض عينيّ، فلم أستطع، نظرت إلى

صديقي، كان يحاول أيضاً إغماض عينيه، لكن وجهه تكشّف عن جمجمة متيبّسة، وخرج من مكان عينيه غصنان طريّان من نبات أصفر اللون، لزج. لأوّل مرّة أرى هذا النبات. شعرت بحرقة في عينيّ، مددت يدي، تلمّست أغصاناً كثيرة تخرج من رأسي، وتهتزّ بفعل ريح تولّدت فجأة بين الغبار، سمعت أصوات أبواق ومزامير وطبول، غاب صديقي في دائرة الغبار، ولم أعد أرى شيئاً، رغبت بالاستلقاء، فاستلقيت.

كان الغبار ينعقد في الأعلى، يشكّل غيوماً صفراء، تعبر ببطء، وتمطر. انقشع الغبار، وصفا الجوّ، رفعت رأسي راغباً بالجلوس، ظهرت المنصّة ذاتها، ما زال البوّاب ذو السنام راكعاً دون رأس، المنصّة تقترب، يدفعها جنديّان فوق عجلات خشبيّة، تطقطق وتتأرجح. توقّفت المنصّة قربي، خرج الجنديّ المدجّج ذاته الذي قطع رأس البواب، صعد المنصّة وصاح منادياً إياييّ، ذكر اسمي، فعرفت أنّه يريدني، تقدّمت مستغرباً وخائفاً، ناولني السيف المذهّب، ثم ركع وأحنى رأسه، أمرني بضرب عنقه. تردّدت كثيراً، لكنّه أصرّ صارخاً ومحذّراً:

ـ إن لم تنفّذ الأمر يا عبد، ستعاقَب بالخروج من ديارنا، والطّرد إلى أفق واسع، تكون فيه حراً، الويل لك حينذاك.

عادت الذاكرة إليّ وأنا أتناول السيف طائعاً، كنّا فيما مضى من زمان غير محدد نطالب بالحريّة، لم نكن أغبياء، وكنّا على يقين من أننا سننالها. يومذاك خرجت من البيت مودّعاً زوجتي وأطفالي، واعداً إياهم بالمزيد من الخبز والهدايا. اقتربتُ من أمي، انحنيت أمامها، قبّلت يدها ورأسها طالباً الدعاء. أذكر أن ضوءاً غريباً بزغ من عينيها تلك اللحظة وهي تدمع وتبتهل. أجل... كل ذلك أذكره. حدّقت إلى هذا الجنديّ المدجّج أمامي، والذي راح ينحني أكثر، ويضحك، ينشد الأناشيد ذاتها التي أنشدها البوّاب ذو السنام، ثم لمحت رأسه يكرج أمامي.

أقسم لم أرفع السيف إطلاقاً، ولم أضرب عنق الجنديّ، حزنت كثيراً حين رأيت الرأس المقطوع ينشد آخر أناشيده، ثم يهمد. سمعت قهقهة عن يميني، إنه صديقي ذو اللحية البيضاء، يستعرض عضلات زنديه، ويرفع سيفاً في الهواء، يرقص ويتباهى بسيفه الذي يقطر دماً.

رميت سيفي بعيداً ورحت أركض، عدوت دون هدفٍ محدّد، تبعني بعض الجنود طالبين مني العودة، تابعت الركض، فتوقّفوا وعادوا.

ـ (الحريّة إذاً ما تبغي، أيّها السيّد العبد، لك ذلك. ولكن إيّاك والعودة إلى ديارنا.)

صوت الجنود يلاحقني وأنا أعدو، تجاوزت منصّات كثيرة، كنت أتركها ورائي، بسيوفها، ورؤوسها المقطوعة الضاحكة، بجنودها وأناشيدها، وأعدو.

الدير ذو الأقواس الحجريّة الواطئة نهض أمامي محاولاً منعي، رفعت كتاباً أسلموني إيّاه حين فرزونا زمراً زمراً، طار الكتاب من يدي، وغاب الدير الحجريّ، تجاوزت غابة قديمة، أشجارها مائلة في ركوع أبديّ، طوابير من الجنود المصطفّين مررت بها، ينظر الجنود إليّ بلا مبالاة، ويعودون إلى تدريباتهم. كان القادة الفرسان يتوقّفون حين أمرّ، يرمقونني بسخرية ويتابعون أعمالهم. أغمضت عينيّ على عالم من الألغاز، وأسرعت.

اشتقت إلى صديقي العجوز، ذي اللحية البيضاء، رغبت بأن أتأبّط ذراعه، ونتمشّى، لكنّه تحوّل إلى قاتل، أجل، ما زال منظره وهو يرقص بالسيف المدمّى أمامي، أبعدت رغبتي تلك، بل أبعدت رغباتي جميعها، شعرت بالأغصان الصفراء النابتة من رأسي تتساقط، غصناً بعد غصن. عاد الدبيب إلى رأسي. وعلى مسافة غير بعيدة انكشفت مدينة أعرفها، سررت بما وصلت إليه. رأيت بناية بيضاء بعدّة طبقات، رخام شرفاتها يبرق من بعيد، اقتربت منها، تمشّيت بجانب سورها المنخفض. الحديقة

الجميلة ذاتها، داخل السور، والبوّاب ذاته يمسك خرطوم الماء، ويرشّ. التفت إليّ وراح يقهقه، عرفته من معطفه الأزرق المخطّط. يا الله... كم أحبُّ هذا الرجل..!!

دنوت منه راغباً بالحديث إليه، بل راغباً بعناقه. ابتعد عنّي تاركاً خرطوم الماء، وراح يعدو ويضحك. اقتربت أكثر، تأملّت المكان جيّداً، الأعشاب خضراء ناصعة، والأزهار الملوّنة حول المرج الأخضر تغريني بالاقتراب،

تذكّرت دارنا الواسعة، وفرحت.

الكرسيّ المتأرجح قرب السياج يناديني، رحت إليه، فوجئت بمعطف أزرق مخطّط، تناولته ولبسته، ثم مضيت بفرح غامر إلى خرطوم الماء. سمعت صوتاً ينادي عند مدخل البناية، رميت الخرطوم، ومضيت إلى هناك. كان صاحب الصوت رجلاً قرويّاً، سألني إن كان يستطيع الدخول، دخلت باب البناية، تناولت كرسيّاً، وكتاباً سميكاً، سجّلت اسم الرجل في الكتاب، ثنيت الورقة جيّداً وطويت الكتاب، ثم ناولت الكرسيّ للرجل قائلاً:

- اجلس هنا، وانتظر.

حدائق وشرفات

الليلة الألف

هذه الشرفة ستسقط قريباً، بل ستسقط هذه الليلة، سآمرها بالسقوط، وهي لن تخالف أمري، لا تجرؤ ولا تستطيع. يا ألله كم سأكون سعيداً حين تهوي أمامي!! تتناثر الأصص وتنتشر روائح الزهور. سأحتفل بسقوطها، أجل، لا بدّ أن أحتفل، فجميع الشرفات التي تداعت، ثم سقطت، لم تكن بهذا البهاء. وذاك الحبل الممتدّ من أولها إلى آخرها، تتدلّى منه ملابس ملوّنة، نقّطت عطراً فوق رأسي منذ قليل، أتمنى ألاّ تجفّ قبل السقوط، لأستطيع تنشّق روائحها العطرة.

أحياناً أحسد نفسي. فما إن أرغب بشيء حتى يتحقق، أيّة أمنية لا تصعب عليّ، أمتلك مقدرة عجيبة قلّما يمتلكها أحد، أستطيع ـ مثلاً ـ أن أطير، هل تصدّقون ذلك؟ أستطيع رؤية الأعماق حين يكون البحر

هائجاً، صحيح أنني لم أر البحر سوى مرّة واحدة، كنت صغيراً حين قمنا برحلة مدرسيّة إلى الساحل، خزّنت تلك المساحة الممتدّة من الماء في ذهني، توقّعت أن أحتاجها يوماً، وهاأنا أعوم فيها متى أشاء.

الناس يثيرون شفقتي أكثر مما أثير شفقتهم، يرونني درويشاً، وأراهم أكثر دروشة، وأقلّ فهماً مما أتخيّل. هم لا يحلمون كما أحلم، بل إنهم لا يعرفون روعة الحلم حين يأتي كغيمة ملوّنة، تحطّ على الوجه، وتعبقه بالعطور. هؤلاء الناس كائنات تدبّ ببلادة، لا ترفع رؤوسها إلى فوق، لا ترى شرفات ولا عصافير تحلّق فوق رؤوس أشجار الحديقة. في الحلم لا وجود للرغبات، لأنها تتحقق فور التفكير بها، أستطيع أن أنعم بكلّ شيء. أمّا هؤلاء البشر، كم من الرغبات مرّت دون أن تتحقق لهم؟!

هل أقول لكم إنني أستطيع استحضار عوالم مدهشة، موغلة في القِدم؟ هل رأى أحد منكم ماجلاّن؟ أنا رأيته، رافقني في رحلاتي جميعها، كان صديقاً وفيّاً وصدوقاً، صارعنا الأنواء معاً، وانتصرنا عليها. كنت آمره أحياناً، أجل، كنت معلّمه. لا تستغربوا ذلك، ولا تستعجلوا حكايتي، ماجلاّن مثل هؤلاء الناس، هو أيضاً لا يحلم. مرة تذمّر من كثرة الأوامر، ضغطت على كتفه

وقلت له: (اهدأ يا صاحبي، نحن في البحر، فلا تحزن حين أقود الرحلة، يكفيك أن تطمئنّ إلى عودتك بسلام، وما دمت معي فلا خوف عليك، ستصير معلّماً في وقت قصير) هدأ واستكان، وقبل أن أستيقظ تركته يجمع الحبال والأدوات الزائدة، وينقلها إلى العنبر.

في حلم آخر، سحبت حديقة السّراي إلى غرفتي، صحيح أنني لا أمتلك غرفة، لكنني حلمت بامتلاكها. المهمّ، سحبت الحديقة، ورسمت للأشجار شكل اصطفافها، فأذعنت، أحنت رؤوسها، وأخذت أماكنها بانتظام. وقفت في مكان مرتفع، نفخت صدري مثل امبراطور يتجهّز لإلقاء خطبة. راحت الأشجار تعبر أمامي، تلقي التحيّة قبل أن تستدير وتعود. رجال الشرطة يحرسون المكان ببنادقهم الطويلة، الممتدّة إلى أعلى، رأيت الحراب تتعانق فتعكس نصالها أشعّة الشمس المجّدة عظمتي.

مشكلة هؤلاء الناس أنهم لا يرون فيّ إلاّ ثيابي الرثّة، ومظهري الكئيب والمثير للشفقة، لا يستطيع نظرهم اختراق القشور والوصول إلى الجوهر. أمّا أنا فأستطيع ذلك. حين أنظر ـ مثلاً ـ إلى غابة، أستطيع رؤية اليخضور وهو يتغلغل في الأغصان، أستطيع سماع النسغ وهو يصعد

من الجذور. أنا باختصار لست كهؤلاء الناس، أرى ما لا يستطيعون رؤيته، وأسمع ما لا يسمعون. هم يهتمّون بالأرقام، ويجهلون أن الإحصاء تفاهة. لا يعرفون من الحواسّ إلاّ خمساً. أمّا أنا....

بضع عشرات من الأمتار وأصل إلى مخدعي، صحيح، هل أخبرتكم أين أنام؟ ذلك أمر غير ضروري، وبإمكان الراغبين في المعرفة أن يتبعوا خطواتي، فيعرفوا مسكني. الشرفة التي حدّثتكم عنها، وقلت إنها ستسقط، سأجهّز نفسي لاحتضانها، وأنام. هل سمعتم عن رجل يحتضن شرفة، وينام معها في فراش ممتلئ بالعشب والغبار والحشرات؟

هل أقول لكم إنني...، لا. لن أقول ذلك لأحد، أنا أستحيي، والمرأة الحسناء التي كانت تنشر غسيلها سوف تغضب إن أنا بحت بالسرّ، وربّما لا تأتي، وذلك أمر لا أحتمله، فأنا أتضوّر رغبة للقائها، وسوف ألتقيها، أجل، هي وعدتني، ستهبط مع الشرفة، وسأتناولها قطعة قطعة، أبوس وأداعب على راحتي، هي لن تمانع، بل ستكون مبتهجة هذه الليلة، فشريكها يحمل مقدرات لا يحملها غيره. سأعرّفها إلى صديقي ماجلاّن، وسأجعل زنوبيا تضفر لها شعرها، وتقلّم أظافرها.

نسيت أن أخبركم أنني حين سحبت حديقة السراي إلى الاحتفال بعيد الاستقلال، وبعدما صففت الأشجار في تناسق وانتظام، رغبت بالغناء، فغنّيت. أنا لا أحفظ من الأغاني سوى النشيد الامبراطوري، وذاك مفخرة، بدأت الموسيقى، رفعت رأسي عالياً، ورحت أنشد. كانت الشرفة مواجهة للحديقة، خرجت تلك المرأة مستطلعة، رنت إليّ بإعجاب، رفعت يديها عالياً، ضمّت قبضتيها، ومازلت أنشد. وفجأة مدّت يدها إلى حبل الغسيل، تناولت سروالاً قصيراً زهريّ اللون، رفعته عالياً وراحت تلوّح به، وفي اليد الأخرى رأيتها ترفع إشارة النصر.

في اليوم الثاني جاءت المرأة إليّ، وقفت قربي مبتسمة تلك الابتسامة الحلوة الدافئة، ناولتني خمسة دراهم، وقالت: (ادعُ لي) وأنا لا بدّ أن أدعو، فدعوت. دعوت وابتهلت إلى الله أن يسقط تلك الشرفة فوق وجهي قبل أن يجفّ الغسيل. ستسقط المرأة معها، وأحتضنها هكذا، هكذا، هل ترونني؟

لست راغباً بالنوم، وإنّما راغب في استعجال الحلم، سقوط الشرفة الجميلة فوق وجهي. ما بال هذا التعس ينام مكاني؟! قلت له ألف مرّة إن هذه غرفة نومي، فمتى يفهم؟ دائماً يشاكسني، يظنّ نفسه رجلاً، كم

تعاركنا، وكم انتصرت!! هو غافٍ الآن دون شكّ، هل أوقظه؟ لا. ذلك غير لائق. دعه ينم يا رجل، واختر لك مكاناً آخر، فالحديقة واسعة، تتسع للمتسكّعين وللمتشرّدين جميعاً، أم إنّك فقدت الشفقة؟ دعه، دعه يحلم، ألا ترى جفنيه يرتجفان؟ لا شكّ أنه يحلم، ولكن بماذا؟ ما لك وما له أيها الفضوليّ، ليس من حقّك مصادرة أحلام الآخرين، ولا معرفتها.

الأفضل لي أن أرمي فضولي جانباً، وأبحث عن مكان آخر للنوم، فعلاً لا يحقّ لي ذلك. وتلك الحسناء لن تسقط شرفتها إلاّ على وجهي، فليحلم الناس جميعاً بما يشتهون، ولن أحلم هذه الليلة إلاّ بتلك الحسناء وهي تتهادى فوق شرفتها قريباً مني، ترفرف بفستانها الجميل قربي، نغنّي معاً نشيد الانتصار، بل سأغنّي ذلك النشيد وحدي، وأترك لها أن تهتف كما تشاء، وأن ترفرف بأعلامها كما تشاء.

سلّم الليل الثقيل

دائماً أجد نفسي مجبراً على حمله، أتجوّل في شوارع المدينة النائمة، أسنده أحياناً على عمود كهرباء، وأصعد لأطفئ المصباح المتلألئ الفاضح، عملي يقتضي التخفّي، لئلاّ يخاف الناس، فأنا لا أخاف. الجدران المرتفعة تغريني لرؤية ما وراءها، أثبّت السلّم جيداً، وأصعد، أراقب أمكنة لا يراها الكثيرون من أمثالي، أُسعد باكتشافاتي المليئة بالمفاجآت. أفاجئ كائنات الليل، أتعثّر بها، فتجفل، تهرب قبل أن تصل قدمي إليها، وتركلها.

أنا مصباح الشعلان، ابن حيّ شرقيّ لمدينة لا تعترف بأحيائها الشرقية، أرغب بمعاقبتها، أخرج إلى الشرفة، أمسح أضواء المدينة، أستكشف أحياءها الهادئة، أبنيتها الرخامية، حاراتها وشوارعها وشرفاتها، ثم أعود إلى

غرفتي، أطفئ الضوء، فتمتلئ بعتمة كثيفة، أتقدّم بحذر صوب السرير، أتّكئ على وسادة قاسية، أغمض عينيّ، أحمل سلّمي، وأمضي.

في الميدان الرئيس يفاجئني عامل التنظيفات، بل أنا أفاجئه، فلا شيء ولا أحد في هذا العالم يفاجئني، ينظر إليّ باندهاش، يوقف عربته مبحلقاً بي، وقبل أن يتكلّم، أمسحه عن الوجود، ويبقى الميدان لي وحدي. أتلفّت حولي، أشير للسيارات العابرة أن تغيّر اتّجاهها، تطيعني، تطفئ أضواءها الكاشفة، وتنسلّ بين الأزقّة الفرعيّة. أستطلع المكان، الشرفات القريبة مضاءة بأضواء خفيفة، ملوّنة. ستائرها الشفّافة الناعمة تتماوج أمام أخيلة شبحيّة، أبتسم بخبث، أحمل سلّمي وأمضي، أسنده إلى الشرفة، وأصعد.

قديماً. كنت شديد الرومانسيّة، لم أكن أحتاج سلّماً، كان باستطاعتي أن أجعل ذراعيّ جناحين، أطير بهما، وأحطّ فوق الشرفات والأسطحة، وأعالي الجدران، أدخل الغرف بثقة، لا شيء يخيفني، فحين أشعر بأي خطر، أرفرف، وأطير عائداً إلى مكان آخر.

الآن. صرت أكثر واقعيّة، فلا يمكن للإنسان أن يطير، هكذا خلقه الله، مغضوباً عليه، أو مكرّماً. أفتح

عينيّ، أصبحت العتمة أقلّ كثافة، أضواء الشارع تدخل الغرفة، يصير المكان مساحة سوداء، مرشوشة بذرّات ضوء خفيف، أرغب بالنوم، أحتاجه. مرّ يوم مضنٍ، مئات الصناديق أنزلتها من الشاحنات، رتّبتها متلاصقة قرب الحائط. أنا مصباح الشعلان، سيّد عتّالي السوق، باعتراف معلّمي. دائماً يعيّر زملائي العتّالين، ويقيسهم بي، ينظرون إليّ بحسد، أو بغيرة، وأحياناً بشفقة، يسرّون إلى المعلم، يوشوشونه مبررين تقصيرهم ونشاطي، بهذه الحدبة القوية، كتلة عظميّة محاطة بنسيج سميك من العضلات، وضعها الله خلف كتفي الأيمن، ألصقها بي منذ أتيت هذه الدنيا. أسند الصناديق والأكياس فوقها، تساعدني كثيراً، أتباهى بها أمام إشفاق الآخرين، تساعدني أيضاً في حمل سلّمي الثقيل حين أتجوّل ليلاً، بل هي السبب الذي قادني إلى السلّم. قلت لكم إنني صرت واقعيّاً حين تخلّيت عن الطيران، وهذا كلام غير دقيق، بل غير صحيح، فما أجمل أن يطير المرء، كنت أشعر بسعادة غامرة، لكن هذه الحدبة تجعل طيراني غير متوازن، أبدو حين أطير كطائر أصيب أحد جناحيه، دائماً أميل إلى اليمين، فتحسبني الخفافيش طائراً حقيقياً مصاباً، فتنهال عليّ بشراسة،

وقد أسقط خلف جدار، أو تحت شرفة، فلا أستطيع النهوض، لذلك عدلت عن الطيران، حزيناً كنت، وما أزال حزيناً حين أتذكّر أيام الأجنحة. أغمض عينيّ ثانية، تطير الرغبة في النوم، ويطير النعاس، وتستيقظ رغبات أخرى.

أترك السلّم مستنداً إلى الشرفة، وأقفز، النافذة مفتوحة، أزيح الستارة بهدوء، أتأمّل ألبسة النوم الشفّافة لنساء شبه عاريات. الأجساد تغطّ في النوم، والسيقان العارية تنسلّ من تحت الأغطية الخفيفة، وتلمع تحت أضواء ملوّنة، وقد تتشابك مع أفخاذ خشنة، أشعر بعداء، ورغبة في القتل، أعود إلى السلّم لأحمله إلى شرفة أخرى، لا تخفي وراءها سوى النساء.

أحدّق في فضاء غرفتي، أكره ذرّات الضوء التي تكشف لي أشيائي في الغرفة، فتعيدني إلى الواقع من حلم كنت فيه مفعماً بالرغبات. لا أطيق العودة، أحب البقاء فوق الشرفة، هناك تنحسر الأغطية أكثر عن الأجساد الأنثوية، تجتاحني رغبة قاهرة. يرتفع الضغط لديّ، تتوتّر الأعصاب، أسند حدبتي إلى الحائط، وأشرع بخلع ملابسي، يصلني بوق سيارة مسرعة بتواصل مزعج،

ثم يغيب مبتعداً، يتلوه نباح كلاب راكضة، وتموء هررة تتصارع. حركات أكرهها حين تعيدني من الشوارع مثقلاً بالهمّ، لأتكوّم هنا، في هذه الغرفة البائسة. ينكسر الحلم، ويتكشّف الصباح عن شاحنات ملأى بصناديق الفاكهة وأكياس الخضار، يدخل السوق بما فيه إلى الغرفة المعتمة، تبتعد الشرفات، ويغيب السلّم بدرجاته المتينة، يتحوّل إلى حبل، أرقص عليه كبهلوان، أقفز إلى فوق، ألمح بنظرة خاطفة خيال امرأة، ثم أسقط إلى الحبل، لأقفز من جديد، دون أن تتوضّح معالم امرأة حقيقية.

نم يا مصباح. اقترب الفجر، ألا تريد أن تنام؟ الصناديق تنتظر زنديك وحدبتك، تعبت كثيراً في مشوارك الليلي هذا، أرح نفسك يا رجل، اطوِ ذاك السلّم، خبّئه في درج الطاولة، أو تحت الفراش، اجمع حبالك يا بهلوان لليلة القادمة. في مشوارك القادم، عليك أن تغيّر المكان، ابحث عن حارة نساؤها أجمل، حارة خالية من الرجال، ومن السيارات، ومن عامليّ التنظيفات. لم توفّق هذا المساء، ظهور عامل التنظيفات فأل سوء. ابحث عن مكان آخر يا مصباح الشعلان، فكّر، لا بدّ أن تجد حارة أفضل،

نساؤها أجمل، والوصول إلى شرفاتها أسهل، أو عد إلى رومانسيتك القديمة، اركب جناحيك، وانس أمر الحدبة. ارحل إلى مدينة أخرى، هناك الكثير من المدن، فلماذا تقيّد خيالك بمدينة تكره أحياءها الشرقيّة؟

يقولون إن الأعضاء التناسليّة أول الأعضاء التي تنام في جسم ابن آدم. أكثر من شخص قال ذلك، أمور تحيّرني، تجعلني أشكّ في تكويني البشري، أو أن من قال تلك المعلومة غير صادق، لماذا يختلف الأمر معي؟ لماذا لا أنام كما ينام بقيّة خلق الله؟ الناس ينامون مستلقين، وأنام متّكئاً على حائط تفصلني عنه حدبة لعينة.

يا الله.... ما أجمل أن ينام المرء مستلقياً!!!

مع قدوم الفجر كانت عيناي تهمدان، تتقارب الرموش بإنهاك، وتغيب المدن جميعها، أغمض عينيّ على شرفات، ونساء سأزورهنّ في الليلة القادمة، لن أعود إلى الطيران، سأبقى أحمل السلّم الثقيل كل مساء، لن أحوّله إلى حبل، ولن أكون بهلواناً، أخاف السقوط، أخشى على حدبتي، مبعث فخري بين زملائي العتّالين، لن أترك مجالاً لخفافيش الليل أن تتبعني، وتنقضّ عليّ، السلّم هو الحلّ الوحيد لرجل أحبّ أن يكون واقعيّاً، حتى

في خيالاته، وفي لياليه القائظة راح يرسم مدناً جديدة، وشرفات بألوان يحبها، وقد يتجرّأ أكثر، فيرسم نوافذ دون ستائر، ونساءً دون ملابس.

سلوكيات مرتقبة لرجل مائل

ألطف من كل الأشياء التي يمكن لنا وصفها باللطيفة ينهمر الحزن عليه، وأكثر وداعة من كل الكائنات الوديعة حين تترطّب عيناه، أو حين يتهدّج غناؤه. دائماً يقف هناك، فوق التلّة المطلّة على حديقة حديثة العهد، يغنّي للأزهار والعشب والنوافير، وأمام الأطفال المشاغبين يمدّ صوته كناي في فلاة.

يخيّل للناظر إليه من الحديقة أنه شجرة سرو أمالتها الريح، لكنها لنحالة قامتها لم تسقط، أو كفزّاعة طيور في مصدّ للهواء. وحين يرتاح من غنائه يخطو ببطء خطوات عدّة، ليثبت للناظرين إليه أنه ليس شجرة سرو، ولا فزّاعة. وإنما كائن آدمي، من لحم ودم، وربّما أكثر من ذلك.

في يده حقيبة قماشية منتفخة، حمّالتها طويلة بعض الشيء، إلى حدّ يجعلها تلامس الأرض حين يعلّقها الرجل

المائل في كتفه، فيضطر إلى أن يميل بجسده إلى الجهة الأخرى، أو أن يرفعها قليلاً إلى أن تتعب ذراعه، فيسترخي بإعياء.

كثيرون من روّاد الحديقة سئموا النظر إليه، فلم يعد يعنيهم أمره. وبعضهم ما زال ينتظر ما يكنّه هذا الرجل الغريب في سلوكه الغريب. يظنّون أنه اختار هذا المكان بسبب إطلالته، وربّما تكون الحقيقة غير ذلك. فالشمس أوّل ما تظهر تفرش نورها على التلّة، فينعم الرجل بظلّ طويل، ربّما يتجاوز مساحة الحديقة، وقد يصعد بناية ويدخلها من إحدى الشرفات المكشوفة. والرجل حين يميل يكون قد راقب الأمكنة جيّداً، واختار النافذة المناسبة لإدخال ظلّه الطويل، أو لصلبه أمام زجاجها الكاشف.

الرجل المائل لا ينسى تحريك قدميه كل حين. القدمان تنتقلان بتثاقل مريب، وكأنهما منغرستان في التلّة، أو مربوطتان إلى وتد. أحياناً يرفع ذراعيه أفقياً، فتبتعد الحقيبة عن جسده، وتصبح كالنواس، تتمايل وتهتزّ قبل أن تستقرّ شاقولياً، فتبدو كعمود نحيل يستند إليه الرجل. وأحياناً يقارب يديه حتى يتلاصقا، ويشير إلى جهة الشرق، يحدّق إلى قرص الشمس المتوهّج، وكأنه يمارس طقوس عبادة غريبة. أو نوعاً من التحدّي، أو أنه يبتهل كقدّيس نوى لتوّه دخول الدير.

لا يشكّ أحد من المارّة المهتمّين بأمره بحصول أشياء مفاجئة، لأن الكثيرين من ذوي الكرامات لديهم ممارساتهم الخاصّة والغريبة، وسرعان ما تظهر علامات وإشارات ترسلها قوى غيبيّة إكراماً لهؤلاء الدراويش. المارّة ينتظرون بفضول أن يُشعل الرجل المائل أعواد البخور، ويلوّح بها في الهواء حوله تمجيداً لمعجزة قادمة، وقد اقترب أوانها. في الآونة الأخيرة أصبح ينحني نصف انحناءة، لا تناسب جهة ميلانه المعتادة، فيبدو جسده كثير الالتواء، تماماً كصورة في مرآة متعرّجة السطح، أو كخيال في ماء رجراج. حتى إنه هجر الغناء مكتفياً بحركاته الملتبسة، وإشاراته المريبة. وعيناه الواسعتان تحوّلتا فجأة إلى نبعين جافّين، وبإمكان الذين يقتربون منه رؤية التغضّنات حولهما كتربة تشققت بعد جفاف.

الناس الذين أصبحوا يتأمّلونه بسخرية جعلهم تغيّر سلوكه خائفين، ففي دواخلهم زرع التسرّع لديهم شكوكاً وندماً، لا يعرفون كيف يتخلّصون منه، وأمسوا على يقين بأن لهذا الرجل الغريب شأناً ما. ولا شكّ أن صمته وحزنه يحملان للمدينة أموراً لا تسرّ.

لم يعد الرجل المائل يردّ على أحد، ولا يكلّم أحداً، لا يجيب عن أي سؤال، ولا أي استفسار. حتى نظراته باتت

باردة وباهتة، لا تحمل أي معنى، كأنها البلاهة ذاتها، تلك المكوّمة خلف عينيه. هكذا يتهيّأ للعابثين الذين ما زالوا ينظرون إليه نظرات السخرية القديمة، يتجاوزونه هو ونظراته وكراماته المزعومة، منطلقين إلى الحياة بنهم مخيف. أما العقلاء فلهم معه حكاية أخرى، فلا هم يهتمون بأمره، ولا يعتبرونه موجوداً أصلاً، وهذا ما بات يزعجه، فيزيد من إيماءاته حين يعبرون، وكأنه يحرّض فيهم رؤيتهم الثاقبة، وعقولهم المنفتحة، يرسل إليهم رسائله وهم عنه غافلون، مما أجبره ذات صباح أن يرفع صوته كثيراً، وهو نادراً ما يفعل ذلك. أطراف المدينة المستلقية على ضجيج وصخب تهيّأت نوافذها وشرفاتها لسماع غنائه، والناس توافدوا من جهات المدينة كلها إليه. وأمام الحشد انتصب بقامته المديدة، ولأول مرّة ينتصب الرجل المائل سويّاً، حدّق إلى الناس بسخرية مريرة، ودون أن يتكلم رمى الحقيبة المنتفخة، فخفّ وزنه وغاب صعوداً، تماماً كعمود من البخار يتلاشى.

الفهرس

حكايات للوطن، والزنازن..... 5
ليلة المطر... والريح..... 7
الأنبياء..... 15
زيزان ابن سكابا..... 23
ليلة العبور..... 31
دائماً يولدون..... 40
زدني..... 48
المعبر..... 55
عالم ضيّق فسيح..... 60
هنا ... تحت العرش..... 68
التحوّل..... 77
لها.... لهم 85
السّيل..... 87
أقواس ملائكية 101
عيون الحارس النّائم..... 107

هو صوتها 111
صوفيا وعبدو الفوّال..... 119
ضيوف الجدّة..... 128
تهويمات..... 136
ملك القصر الشرقي..... 137
وجوه في الماء..... 145
شيخ البلّورة..... 155
هي، ورحلة البحث..... 162
بلازما..... 169
الصّدى 174
فانتازيا الجنون... والموت 181
حدائق وشرفات..... 193
الليلة الألف 195
سلّم الليل الثقيل 201
سلوكيات مرتقبة لرجل مائل 208